الخليج العربي ..... المجلد التاسع عشر ..... العدد (٢) ١٩٨٧
..... مجلة علمية يصدرها مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ـ الجمهورية العراقية .....

المدينة الخليجية بعد النفط
دراسة اجتماعية سياسية

الدكتور احمد جمال ظاهر
جامعة اليرموك ـ الاردن

تمهيد:

يقارن فرانز فانون (Franz Fanon) في كتابه بؤساء الارض **The Wretched of the Earth** بين مدينة المستعمِر ومدينة المستعمَر بأن الاولى تمتاز بمباني الحجر والحديد والانوار الساطعة والشوارع المعبدة والاسلاك الشائكة التي يصعب على الفرد الدخول اليها. حتى ان صناديق قمامتها تعرف الوانا من بقايا الطعام مالا تعرفه بيوتات المستعمَر. والمستعمِر انسان مرفه يحق له الاستمتاع بشواطىء البحار بينما يحرم الساكن الاصلي من الاقتراب منها. اما مخيم السكان الاصليين او قريتهم او مدينتهم فهو مكان لايحظر على المستعمِر التجوال فيه، فهو مكان تسكنه حثالة البشر (من وجهة نظر المستعمِر)، لاقيمة لهم، لايفقهون معنى الحياة، يولد فيه الانسان تحت ظل شجرة او في ظل صخرة، وفيه يموت الانسان كما تموت الفئران. عالم السكان الاصليين، (عند فانون)، لافواصل فيه، الناس كتل حيوانية تتكدس فوق بعضها البعض يقتلهم الجوع والحرمان، فهم جائعون الى الخبز واللحم والفحم والنور والماء، انه عالم راكد، راكع، وجاف مملوء بالوحل والمجاري. . .[1]

(١) Franz Fanon, **The Wretched of the Earth,** (New York: Penguin Books, 1980), Chapter 1, First published by Grove Press of New York in 1962.

ويصف لويس مامفرد Lewis Mumford في كتابه الطرق الرئيسة والمـــــدينة **The-Highways and the City** المدن الاوربية وبناءها الجديد بعد الحرب العالمية الثانية قائلا :-

« . . . والان فانهم (القائمون على تخطيط المدن) يمثلون بغير وعي التضخم المالي ورخص الانسان او بعبارة ادق فهم يحاولون تطـــبيع وتقـــبل اللامعقـــــول (formalization of the irrational) والواقع فان هذا اللامعقول قد اصبح ميزة من ميزات العصر الغارق في استعمالات الطاقة الذرية قبل التفكير في ايجاد مكان صالح لوضع الفضلات الكيمياوية . انه عصر يتميز بتأمين وفرة في المحاصيل الزراعية الا انه يسمم هذه المحاصيل بالمبيدات الحشرية القاتلة بغير حذر وبـذلك يصيبـون طعام المستهلك . [٢] » .

وعلى الرغم من استقلال المدينة الخليجية فهل مازالت تنقسم على اجزاء اشبه ما تكون بالمقارنة التي وضعها فرانز فانون؟ او الوصف الـذي وصفه لـويس مامفـرد للمدينة الاوربية التي بنيت في اعقاب الحرب العالميـة الثانيـة كما اعيـد بناء المـدن الخليجية في فترة ارتفـاع اسعار النفط؟ ومـاذا عن الشعور الجمـاعي (Collective Feelings) او الشعور المجتمعي (Sense of Community) في المدينة الخليجية؟ بعبارة اخرى كيف اصبح تأثير المدينة التي حل في بنائها الاسمنت بدلا من الطين على صنع المواطن العربي الخليجي؟ وماتأثير ذلك على العلاقة بين الجنسين؟ الاجابة على هذه الاسئلة وغيرها من صلب هذا الموضوع. وحتى يتسنى لنا الاجابة على ذلك سيتعرض هذا البحث للنقاط الرئيسية التالية :-

نظرية المدينة واهميتها من خلال عرض النظريات الاوربية او الامريكية، ثم النظر في طبيعة وتكوين المدينة الاسلامية العربية، فالمدينة الخليجية بعـد النفط، واخيرا نحاول بعض الاستنتاجات والتوصيات .

نظرية المدينة

تعاني نظرية المدينة من ازمة، ونظرية المدينة هنا ليست محددة بمكان او زمان معين، فالمدينة التي تجمع بين الناس، بأوسع معاني التعريف، هي نفسها المدينة بغض النظر عن مكانها وزمانها . المدينة هي الشيء الحي الذي ينعم فيه الناس بطيب العيش على

---

(٢) Lewis Mumford, **The Highway and the City,** (New York: The American Library, 1963), P. 11. First Published in 1953.

حد قول ارسطو. ولكن ازمة النظرية تنبع من كون المدينة شيئاً حياً. فالمدينة، اذا اخذت على انها نظام حياتي معين، فانها تكون عنصرا أساسيا في البناء البيولوجي التطوري الذي تنتج عنه امراض الحياة المدنية ومآسيها فالحياة المدنية التي يتطاول فيها البنيان، وتتزاحم فيها الاقدام، وتكثر فيها الضوضاء، وتفسدها البيروقراطية، حياة مؤلمة الى حد كبير.

لاتبخل علينا المؤلفات عن المدينة بالقوائم الاحصائية عن عدد السكان وعدد المباني وعدد الشوارع وعدد السيارات وعدد المهاجرين من الريف الى المدينة وكمية استهلاك افرادها للحوم والخضراوات والفواكه وكمية استهلاكهم للطاقة الكهربائية وكميات المياه والخدمات التي لابد من توافرها لمواجهة الكثافة السكانية المطردة. ولاتبخل ذات المؤلفات عن الجرائم التي تحدث في المدينة او عن اعداد الاحداث المنحرفين او الذين يعانون من امراض عقلية او ازمات نفسية. ولاتبخل علينا المؤلفات نفسها عن وصف الحياة السياسية كوجود او عدم وجود احزاب سياسية، او غرف تجارية، او اتحادات عمالية، او اعداد الصحف اليومية والاسبوعية، او عدد المدارس والمساجد والكنائس والجامعات والنوادي الفكرية والرياضية والمتاحف والمطاعم والفنادق ودور الخيالة والمنتزهات وحدائق الاطفال والمستشفيات وحدائق الحيوانات وما الى ذلك، كل هذا وذاك موجود في المؤلفات التي بحثت في المدينة او عنها باستثناء مخترع المدينة ذاتها: الانسان الفرد. كل شيء قد كتب فيه باستثناء ذلك الذي صنع المدينة. فاذا اجابت المؤلفات عن كل شيء داخل المدينة باستثناء مؤسسها فان السؤال الذي يبقى بعدئذ ماهي المدينة؟ وقد يكون هذا سببا اساسيا في ازمة نظرية المدينة.

تعرف دائرة المعارف البريطانية المدينة بأنها «الاسم الذي يطلق على مجموعات اجتماعية معينة بفضل قانون تشريعي كما جرت عليه الحال في الدول الناطقة بالانجليزية وقد يطلق الاسم على مجتمع معين له خصائص حضارية، وفي الولايات المتحدة فان اسم المدينة يطلق على مجتمع معين عن طريق مجلس الولاية التشريعي[٣]، ويعرف جورج بورجستروم (George Borgstrom) المدينة الحديثة بقوله :-

«مركز العمل والتعليم والمدنية. وهي كذلك مركز الفقر والانحراف والجريمة والدعارة والمشروبات الروحية والمخدرات. ومن المتعارف عليه ان المدينة تمتاز بالمكان

(٣) **Encyclobedia Britanica,** Under the title «City», p. 809.

الضيق و الضوء القليل وكثرة الهواء الفاسد وقلة المناظر الطبيعية الخضراء والكثير من الضوضاء[٤]».

ومهما يكن من الامر فان التعاريف السابقة قد اغفلت دور الفرد صانع المدينة. والمدينة هي مجتمع مستقر نسبيا بعدد سكانه الذين يتزايدون باطراد والتي تجمع بينهم علاقات اجتماعية متغيرة حسب تغير عددهم ونشاطهم العملي.

بدأ ظهور المدن قبل حوالي سبعة الاف سنة نتيجة زواج الحياة الرعوية الفظة بالحياة الزراعية الناعمة على حد قول لويس مامفرد[٥] وتعتبر مدينة اريحا الفلسطينية من اقدم مدن العالم (حوالي ٦٨٠٠ ق. م) والتي تميزت بحياة اجتماعية وعمرانية تجلت في المباني والمساكن. ومع التقدم الزراعي والتكنولوجي تطورت المدينة في وادي النيل وبلاد الرافدين وظهرت المنظمات الاجتماعية والسياسية واصبحت مراكز تجارية. وقد تميزت المدن انذاك بوحدات اجتماعية قبلية شبه متجانسة والولاء فيها لمن في يده السلطة والنفوذ السياسي. ويخبرنا علماء الاثار ان المدن القديمة قد تميزت بوجود المرافق الصحية والشوارع الفسيحة واماكن الراحة للمسافرين (الخانات) ومبانيها من اللبن المسقوفة من الطين والقش.

اما المدينة اليونانية فقد ورثت ماكان لدى المدن المصرية او الاشورية او السومرية. وقد كانت اثينا اشبه ماتكون ببلدة صغيرة تنقصها وسائل الراحة. وكان سكانها من الزراع والرعاة والتجار والحرفيين. ولم تكن اثينا تختلف عن اي قرية من حيث ابنيتها المتراصة وشوارعها الترابية الضيقة ووسائل الراحة المعدومة. ولكن الذي انفردت فيه اثينا عن غيرها من المدن ـ وقد يكون هذا سر عظمتها كمدينة ـ هو الطابع الديموقراطي لسكانها. والواقع واذا كانت الحياة اليونانية تتميز بالديموقراطية (الحياة الديموقراطية لم تظهر الا بعد وبسبب ظهور الطبقة التجارية وطبقة الحرفيين) الا ان اثينا قد حملت الموضوع على محمل الجد. فقد شارك المواطنون الذكور في حكم انفسهم. وعلى الرغم من استبعاد النساء والاطفال والاجانب وخلق طبقة من العبيد الا ان المساواة بين الذكور من المواطنين كانت تمثل درجة عالية من الديموقراطية. ويمكن ايضا ان تكون هذه العملية الديموقراطية لصالح امن واستقرار النظام السياسي وذلك عن طريق التمييز بين المواطن وغير المواطن. فعندما يقارن المواطن وضعه بغير

---

(٤) George Borgstrom, quoted in Tyler Miller, **Living in the Enviornment,** (Belmont, Calif.: Wadsworth Publishing Co., 1979), P. 210.

(٥) Lewis Mumford, **The City in History,** (New York: Harcourt Brace Ivanovitch, 1961).

المواطن فسوف يزيد انتماءه للنظام السياسي القائم. وقد كان مواطنو اثينا يشكلون سبع السكان وهي نسبة لابأس بها لاثبات النظام الديموقراطي. وقد لايبالغ الكاتب ان قال ان اثينا قد طبقت النظام الديموقراطي افضل بكثير من ديموقراطيات القرن العشرين (كانت هناك ديموقراطية مباشرة يصبح فيها كل مواطن، بحكم مواطنته فحسب، عضوا في مجلس الشعب، وليس عن طريق نواب، وبخاصة اذا قورن الامر بمدعي الديموقراطية من دول العالمين الثاني والثالث. والواقع فان قضية التفرقة بين المواطن والمواطن او بين المواطن والمقيم في كثير من دول العالم الحديث لها علاقة بقضية امن واستقرار النظام السياسي. وقد ابدعت المدينة العربية الحديثة في الفصل بين المواطن والمواطن واعلاء الصراع بينهما من اجل الامن والاستقرار للنظام السياسي القائم كما سنلاحظ عند بحث موضوع الغربة والاغتراب الذي يعاني منهما المواطن العربي بشكل عام.

والى جانب ربط السياسة بالمدينة الاثينية واعلائها من شأن الديموقراطية وحكم المواطن لنفسه وتعلمه كيف يكون حاكما ومحكوما في الوقت نفسه فان فكرة المدينة كمدينة وصلت الى قمة الهرم عند اليونان. لقد كان الشعور الجماعي والروح الجماعية التي تمثل مجموع سكان المدينة وتربطهم برباط هوية واحدة من صنع اليونان وهو امر لم يكن موجودا في المدن الاسيوية او الافريقية الاخرى. وقد نظر المواطن اليوناني الى مدينته وقوانينها كنظام اخلاقي. وقد عبر ارسطو عن المدينة بقوله «انها حياة جماعية لهدف نبيل». والواقع فقد شرعت المدن اليونانية (كانت قد اصبحت شكلا بدون مضمون، بها مجالس شعبية ولكن محدودة الصلاحيات فالحكم والحسم الحقيقي للامور كان قد اصبح في يد ملوك العالم المتأغرق) وازداد عددها في العصر الهلنستي وحافظت على الثقافة الاغريقية السابقة كما ظهر ذلك جليا في مدينة الاسكندرية.[٦] (الاسكندرية كانت عالمية التكوين Cosmopolitan يونان ومقدونيون ومصريون واسيويون ويهود).

اما الرومان فقد قلبوا وضع المدينة اليونانية رأسا على عقب. فاذا كانت المدينة اليونانية تمثل الشعور الجماعي والتراث الانساني والتخطيط الجيد لمواطنها على

٦- لوصف حالة المدن اليونانية القديمة من جهة وتخطيط الاسكندر المقدوني لمدن العصر الهلينى من جهة اخرى ووصف لمدينة الاسكندرية وتراثها من جهة ثالثة انظر في كافن رايلي، الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات (الكويت عالم المعرفة، ١٩٨٥)، القسم الاول، ص١٠١ - ص١١٩، ترجمة عبد الوهاب المسيري وهدى حجازي.

الصعيدين السياسي والاجتماعي فان المدينة الرومانية قد اصبحت تمثل القوة العسكرية الفظة. لقد تبدلت نعومة المدينة اليونانية ليحل مكانها فظاظة المدينة الرومانية. لقد اصبحت المدينة الرومانية (روما على وجه الخصوص) مركز الامبراطورية العسكرية فلم توفر المدينة الرومانية وضعا اقتصاديا او اجتماعيا جيدا لمواطنيها باستثناء حاجيات الطبقة الارستقراطية الحاكمة. لقد اضحى المواطن الروماني مواطناً عالميا الامر الذي ادى الى اندثار فكرة الواجب للصالح العام واحلال فكرة الطموح الفردي عوضا عنها[٧].

كان الفرق شاسعا بين اشراف روما وفقرائها. فالاغنياء يعيشون في بيوت تحاط بها الحدائق وتحرسها العبيد، اما الفقراء فكانوا يعيشون في اماكن مزدحمة وغير صحية وعليهم اغلاق ابوابهم جيدا طوال الليل خشية اللصوص. وعليه فلم تفسح الامبراطورية الرومانية لمواطنيها المجال في المشاركة في الحياة العامة كما كان عليه الحال في اثينا، كما ان الامبراطورية لم تستطع ان توفر الشعور الجماعي والروح الجماعية لمواطنيها على غرار ماوفرته المدينة اليونانية. وبذلك انعدم الاستقلال الذاتي الذي كان يحصل عليه اليوناني من خلال الجماعة واحتفالاتها الرياضية والدينية والسياسية سواء كان ذلك في الملعب او المعبد او المسرح او السوق العام. اما الساحات والحمامات العامة والاحتفالات الرياضية الرومانية فلم يكن هدفها المشاركة الجماعية وانما كان هدفها التسلية والتلهية للطبقة الحاكمة والاشراف والاغنياء والاقوياء دون عداهم من الفقراء والعبيد[٨].

واتخذت المدينة في العصور الوسطى نظاما مختلفا عن كلا النظامين اليوناني والروماني وقد اضحى الشعور الجماعي مركزا على القلاع Fortresses (البلدة المحصنة). وقد اهتمت بدايات العصور الوسطى بتشجيع تشكيل المجتمعات الدفاعية Defensive Communities الى جانب المهمات الوظائفية الاخرى من زراعة وتجارة. وعندما خضعت هذه الجماعات لملوك غزاة الشمال فرض عليهم الولاء للملك الذي عن طريقه يمكن اقامة الشعور الجماعي لخدمة الحياة العامة من جهة وضمان خير الآخرة من جهة اخرى. وهكذا تغير مفهوم المدينة من وضع واقعي فعلي

٧ـ المرجع السابق، وانظر ايضا في :ـ

Edward Gibon, **Decline and Fall of the Roman Empire,** (New York: The Modern Library, 1978), First Published in 1910.

وكذلك فلا يوجد اروع من تصوير لويس مامفرد ومقارنته بين المدينتين اليونانية والرومانية. انظر في مامفرد، ذكر سابقا، ص١٥٠ ـ ص٢١٠.

٨ ـ لويس مامفرد، ذكر اعلاه.

الى عالم مابعد الطبيعة. فالمدينة الحقة هي مدينة الله مقابل المدينة المشوهة : مدينة الانسان. ومع التقدم التجاري والصناعي بدأ ظهور المدن منذ القرن العاشر الميلادي كمركز تجاري وظهرت المدن الاوربية كالبندقية وبيزا وجنوا وغيرها مراكز تجارية تربط الغرب بالشرق وبخاصة مع المدن الاسلامية. وقد شهد القرنان الثاني عشر والثالث عشر ظهور العديد من المدن الاوربية التي صاحبها التنظيم الاجتماعي من اجل حماية تجارتهم وتقديم ولائهم للسلطة الملكية الحاكمة. وقد شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر تغيرات اجتماعية عديدة ادت الى وضع حد للعصور الوسطى التي تميزت بطابع ديني متزمت. وقد شهدت الفترة ايضا مزيدا من الصراع الطبقي بين الساسة ورجال الدين من جهة وبين الساسة والاثرياء من التجار من جهة اخرى. اضف الى ذلك انتشار مرض الطاعون وتدهور الاوضاع الاقتصادية الامر الذي انعكس على المدن الاوربية التي عانت من جراء ذلك بأن فقدت ماتمتعت به من شعور جماعي ووحدة اجتماعية ودينية في فترات مختلفة من فترات العصور الوسطى التي امتدت ما يقرب من عشرة قرون. اما القرن السادس عشر فقد شهد الاكتشافات الجغرافية والتقدم التجاري والصناعي والتغير السياسي بظهور الدول القومية. ورأى القرن الثامن عشر اتساعا في ظهور المدن وزيادة التجارة والصناعة الاوربية والاستثمارات الخارجية والاعتماد على الامريكتين في مصادر عديدة اما بالنسبة للمدن الاوربية فقد عاد اليها الشعور الجماعي ولوحظ ان الافراد يسعون الى الصالح العام في مدنهم. اما اواخر القرن الثامن عشر فقد انتج فكرا جديدا: فكر الحرية الفردية والمساواة والديموقراطية وقدرة الانسان اللامحدودة وكماله[٩]. وقد اقتضت مثل هذه الافكار الجديدة ثورة الطبقة البرجوازية، ومعظمها من التجار، ضد الطبقة الحاكمة. وقد عبرت ثورتهم على ضرورة مشاركتهم في السياسة العامة ووضع القوانين بعد ان كانت مقصورة على الملك. والواقع فقد كانت ثورتهم للحصول على

---

٩ ـ للتعرف على هذه المفاهيم وغيرها انظر في :

John Hallawel, **Main Currents in Modern Political Thought,** (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1950).

وقد يكون كتاب بيكر Becker افضل من صور مفاهيم القرن الثامن عشر وهو كتاب لاغنى للمتخصصين في الفكر السياسي الغربي من قراءته. انظر في :

Carl Becker, **The Hevenly City of the Eighteenth Century Philosophers,** (New Haven: Yale University Press, 1932).

وقد لايكون اجود من كتاب Gusset في نقده لافكار وأراء القرن الثامن عشر وما تبع ذلك من ثورة فكرية امتدت حتى الان. وكتاب Gusset لايتوقف على نقده لهذه الافكار بل يبين موقف الفكر المحافظ وموقفه من هذه الاراء. انظر في :

Jesse De Gusset, **The Revolt of the Masses,** (New York: The American Library, 1946).

مزيد من الارباح التي غالبا ماكان الحكم القائم يحد منها عن طريق التشريعات الحكومية. وكانت وسيلتهم الى تشجيع الطبقات المعدمة والفقيرة للوقوف معهم لمقاومة حكم الملك المطلق والقضاء على الاقطاع وتأمين المشاركة الشعبية في الحكم. وقد شاركت المدن الاوربية بطريقة تقل او تزيد حسب اوضاعها العامة في الامن. فقد شاركت باريس مشاركة فعالة في ذلك بينما كانت مشاركة المدن الالمانية او الايطالية بطريقة اقل وهكذا. . . وقد كانت نسبة ضئيلة من سكان العالم (لاتزيد عن ٣٪) في سنة ١٨٠٠ يعيشون في مدن يزيد عدد سكانها عن خمسة الاف نسمة، ولم يزد عدد سكان المدن التي تزيد عن ١٠٠ الف اكثر من ٤٥ مدينة في العالم نصفها في اوربا وفي اسيا كان ثلثا سكان المدن الكبرى وكانت طوكيو اكبر هذه المدن بعدد سكان يقارب الـ ١,٥ مليون ومع هذا وذاك فلم تستطع اي مدينة من هذه المدن احياء الشعور الجماعي سواء كان ذلك على الصعيد الاجتماعي او الاقتصادي او السياسي لسكانها على غرار المدينة اليونانية القديمة[١٠]. وقد تغير وضع المدينة الاوربية على اثر الثورة الصناعية الى اسوأ ماكان عليه الحال وخاصة على الصعيد الاجتماعي. وقد ساهمت الاختراعات في تقدم الانتاج الزراعي والصناعي واصبحت المدن الاوربية في القرن التاسع عشر مركز تجمع الايدي العاملة القادمة من كل حدب وصوب. لقد كانت لندن «ورشة العالم» لتقدمها الصناعي في مجالات الصناعة المختلفة وبدأت العدوى تنتقل الى المدن الاوربية الاخرى شمالا وجنوبا وكان الحال مشابها ايضا في المدن الامريكية من الولايات الشمالية. ولكن التجمع السكاني والعمل في المصانع والمناجم قد غير من العلاقات الاجتماعية بين الافراد. وبدأ ظهور مشاكل المسنين والصحة والسكن والخدمات التعليمية وذلك للضغط المتزايد على حياة المدن.

اما القرن العشرون فقد شهد تغيرا في طبيعة المدينة الاوربية والامريكية. فبعد ان كان سكانها قد ركزوا اهتمامهم على الانتاج في القرن التاسع عشر اضحى السكان يميلون الى الاستهلاك اكثر من جهة واقتصرت المدينة في الخدمات ذات النشاط المتخصص من جهة ثانية وهو نوع من اقتصاد القرن العشرين الذي يختلف عن اقتصاد القرون السابقة. اضف الى ذلك ان الزيادة السكانية في هذا القرن قد ازدادت عما كان عليه الحال سابقا. ففي الفترة ١٩٠٠ ـ ١٩٥٠ ازداد عدد المدن التي تحتوي على ١٠٠ الف نسمة واكثر الى ٢٥٠٪ عما كان عليه الوضع في القرن السابق. وقد ازدادت المدن الاسيوية ثلاثة اضعاف عددها. وقد أسهم ضعف الحكومة المحلية

---

(١٠) Encyclobedia Britanica, Under the title «City», P. 811.

الادارية على غياب هوية الافراد داخل المدينة والتي تعودناها في العصور السابقة.

اهمية النظرية

غياب هوية الافراد داخل المدينة يساوي غياب الافراد فيها. واذا غاب الافراد صانعو المدينة فما هي قيمة المدينة؟ والواقع فان قيمة المدينة لاتظهر الا من خلال صانعيها، وقد يكون هذا سببا لايقتصر على ازمة نظرية المدينة فحسب بل لابد من ايجاد نظرية لها. وتلعب النظرية في هذه الحالة كقاعدة او اساس يقوم عليها التنظيم السياسي والاجتماعي للمدينة. وحكومة المدينة (ان جاز لنا استعمال هذا التعبير) هي الجهاز الاداري المسؤول عن الامن السياسي والاجتماعي ومايتضمن ذلك من تخطيط للحياة المدنية والعمرانية. وتعتبر هذه الاجهزة في معظم مدن العالم اجهزة متشابهة من حيث الغرض سواء كان ذلك في المدن القديمة او الحديثة. الا ان اجهزة المدن الحديثة اكثر تعقيدا من تلك التي كانت تسود المدن القديمة وذلك للتغير الصناعي والتكنولوجي الذي غمر المدينة الحديثة مما جعلها مركز استقطاب للافراد. وسواء كان الجهاز الاداري منتخبا من قبل المواطنين او معينا من قبل الدولة فعليه مسؤولية ايجاد الحلول للقضايا التي تنشأ عن الضغط السكاني كقضايا السكن والصحة والتعليم وغير ذلك، والاهم من هذا وذاك هو خلق الشعور الجماعي بين الافراد للتعاون بين بعضهم البعض من جهة والتعاون مع الجهاز الاداري من جهة اخرى. وعلى ذلك فان حكومة المدينة المحلية تقسم المدينة على مناطق معينة لتوزيع المسؤوليات الكفيلة بنهوض المدينة. وتختلف هذه المناطق بمسؤولياتها بحيث يكون بعضها مركزيا والاخر غير مركزي. وهنا تلاحظ العلاقة الواضحة بين السياسة والادارة. فاذا كان النظام السياسي ديموقراطيا كانت الادارة المحلية غير مركزية، واذا كان النظام السياسي يميل الى الحكم الفردي فالمركزية عنوان ادارته وهذا النوع الاداري المركزي هو من صفة دول العالم الثالث.

ان هدف تخطيط المدينة انما هو هدف اجتماعي حتى عندما يظهر التخطيط وكأنه بقصد تجميل المدينة العمراني من شكل البناء وارتفاعه او اتساع الشوارع او بناء اماكن التسلية والترفيه. اضف الى ذلك ان هدف التخطيط ايضا هو هدف اقتصادي بالاضافة الى النهوض العلمي والتقدم الحضاري. ويلاحظ ان هدف تخطيط المدن في دول اوربا الغربية وامريكا الشمالية انما هو اتاحة الفرصة القصوى للفرد في الاختيار وحمايته من سوء الاخرين، والتساوي بين الافراد بغض النظر عن اشكالهم والوانهم واجناسهم واديانهم (هذا على الصعيد النظري ومحاولة تطبيقه العملي) وضمان حقوق

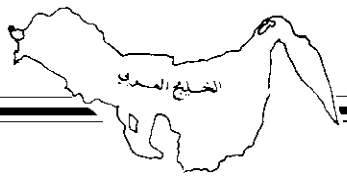

الاقلية وذلك عن طريق افساح المجال لهم بأن يكونوا من ضمن الاكثرية[11]، وعلى ذلك فتخطيط المدن في القرن العشرين قد اهتم بتقسم المدينة على اقسام بعضها خاص بالاقامة والاخر مخصص للصناعة وثالث للتجارة وهكذا حتى يؤدي كل قسم خدماته التي لاتتعارض مع الجزء الاخر، وفتح طرق سهلة للاتصال بين اجزاء المدينة من جهة وبينها وبين الضواحي والمدن الاخرى من جهة ثانية، وتطوير كل جزء من اجزاء المدينة مع ملاحظة احتياجات كل قسم من اماكن وقوف السيارات والمشاة وتقليل حدة الازعاج من الاصوات وتأمين الضوء والهواء النقي وما الى ذلك وتأمين سلامة البيوت السكنية وضمان الخدمات لها من ماء وكهرباء وشوارع، وتأمين المدارس والمستشفيات والعيادات الطبية والمنتزهات وفوق هذا وذاك تشجيع المواطنين على اللقاء لمناقشة مايحتاجونه من خدمات والعمل على ايجاده، بعبارة اخرى خلق شعور الانتماء بينهم.

علي ان اشير هنا الى ان هذه الاهداف لايمكن ان تصل الى حد الكمال. فعلى الرغم من محاولة القائمين على المدن الاوربية والامريكية الوصول الى مثل هذه الاهداف في القرن العشرين الا ان محاولاتهم مازالت في بداية الطريق، والواقع فان كلمة تخطيط لاتزيد عن كونها رسم الطريق عن طريق تنفيذ برامج مختلفة هدفها التقدم والنمو وتحقيق المطالب.

قد تعود نظرية المدينة الى القرن التاسع عشر عندما ازداد سكان المدينة الاوربية والامريكية بفضل الثورة الصناعية. ففي سنة ١٨٨٠ وصل عدد سكان المدن الروسية الى مليوني نسمة والمدن الفرنسية الى مايقارب المليون والمدن البريطانية الى حوالي ثلاثة ـ ارباع المليون. وفي سنة ١٨٩٠ ازداد عدد سكان لندن وباريس الى الضعف تقريبا عما كان عليه الحال في منتصف القرن (١٨٥٠)، وازداد عدد سكان برلين الى اربعة اضعاف ماكانت عليه[12] ومايتطبق على المدن الاوربية ينطبق الى حد كبير على المدن الامريكية.[13] والشيء الذي انفردت به المدينة الامريكية ان خمس السكان سنة ١٨٩٠ كانوا ممن ولدوا خارج المدن الامريكية. ففي شيكاغو مثلا كان الالمان فيها يفوق عددهم اى مكان في العالم باستثناء برلين وهامبورج وكان يمثل المواليد الاجانب ربع سكان مدينة فلدلفيا وثلث سكان بوسطن، ونصف سكان بروكلين من

١١ ـ قد تكون التشريعات الخاصة بالسود والسماح لهم بالمشاركة في النظام السياسي الامريكي من هذا القبيل.

١٢ ـ A. F. Weber, **The Growth of Cities in the Nineteenth Century,** (New York: MacMillan, 1899),

١٣ ـ **United States Eleventh Census,** (Washington, D. C., 1890), Vol. 1, PP. 698-701.

الايطاليين، وكان في نيويورك من الايرلنديين ضعف مافي دبلن ونصف عدد السكان اليهود الموجودين في وارشو[١٤].

التجمع السكاني والزيادة السكانية في مكان ضيق يتطلب اقامة العديد من المشاريع. فالناس بحاجة الى شوارع ومياه وكهرباء ومجاري واماكن خاصة لتجميع القاذورات (حاويات) وجهاز امن وملاعب للاطفال واماكن ترويح ومراكز تعليمية ومدارس ومستشفيات وادارة متخصصة لتطبيق القانون والامن المالي والضمان الاجتماعي وهكذا. وقد دخلت المدن الاوربية منذ القرن الثامن عشر في عمليات تطويرية عديدة للوصول الى هذه الاهداف. واما المدن الامريكية فقد بدأت منذ اواخر القرن التاسع عشر في عملية تطويرية هائلة لمجابهة مثل هذه القضايا. ففي سنة ١٨٧٠ مثلا عبدت شوارع واشنطن العاصمة بحوالي ٤٠٠ الف ياردة مربعة من الاسفلت، وفي سنة ١٨٨٣ كانت مشاكل المرور قد تفاقمت في مدينة نيويورك مما اضطر ادارة المدينة الى بناء الجسور. وكانت مدن اخرى بحاجة الى حل مثل هذه القضايا[١٥].

الزيادة السكانية في المدن الاوربية والامريكية أوجدت مجتمعا جديدا: لقد اوجدت مجتمع المدينة المنتج والمستهلك في الوقت نفسه الذي صاحبه ظهور قيم جديدة. واوجدت الطبقة بين المهاجرين المحدثين وبين من سبقوهم. وقد اعتمد اصحاب المصانع المنتجة على المهاجرين المحدثين الذين عملوا بأجور بخسة. واضحت المدينة تمثل تنينا ضخما تضم جميع المتناقضات من غني وفقير ورأسمالي وعامل ومستهلك ومنتج واصبحت المدينة ايضا مركز التمويل الاقتصادي الذي لديها كل ما يمكن ان يخطر على البال، اضف الى ذلك انها اصبحت مركزا للقيم الجديدة.

امام هذه التغيرات الجديدة في المدن الضخمة بدأت محاولات لوضع نظرية في تفسير المدينة ولكنها لم تتطور الى نظرية قائمة بذاتها. فقد حاول تشارلز كولي (Charls Cooley) تفسير المدينة بموقعها. فبينما كانت المدينة تنشأ في الماضي حول مركز ديني، او قلعة حربية او لغرض سياسي. فأن المدن الحديثة عند كولي تلعب في اقامتها المواصلات. وقد لاحظ كولي ان المدن الامريكية الكبيرة قد اقيم معظمها على ضفاف الانهار[١٦]. وقد ايقظت هذه المحاولة اخرين في المضمار ممن يحاولون تفسير وجود

١٤- Arther Schiesinger, **The Rise of the City,** (New York: MacMillan, 1933).

١٥- Ibid.

١٦- Chales Cooley, **Theory of Transportation,** (New York:The American Economic Association, 1896).

المدينة بالشكل الموجودة عليه وفي المكان الذي توجد فيه. فقد رأى ادنا وبر (Adna Weber) ان هناك عوامل اساسية واخرى ثانوية في وجود المدن. فمن العوامل الاساسية الزيادة السكانية الناتجة عن الاوضاع الاقتصادية والثورة الصناعية التي صاحبها اختراع الطاقة واتساع التجارة وايجاد حلول لمشاكل المواصلات وزيادة الانتاج الزراعي. اما العوامل الثانوية فهي عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية. فعلى الصعيد الاقتصادي تنمو المدينة وتتطور اذا اتيحت فرص العمل والاجور العالية للعاملين. اما على الصعيد السياسي فيذكر وبر نظاما سياسيا تشريعيا يسمح بحرية التجارة والهجرة ويمتاز بادارة مركزية. اما على الصعيد الاجتماعي فالمدينة تتطور اذا كانت تتمتع بالتعليم والترفيه وارتفاع في مستوى المعيشة واتاحة الفرصة للجمعيات العلمية والثقافية وتسمح باختلاف وجهات النظر العلمية والعملية وضروب المعرفة الاخرى، اي ان تكون بعيدة عن التزمت وضيق الافق ولاتخشى القيم الجديدة[١٧]. اضف الى ذلك ان وبر قد وضع بعض الفروض القابلة للفحص والتي تدور حول الشرور الناتجة عن المدينة كالفقر والدعارة وحالات الانحراف وغيرذلك. وهو يؤكد في فصل كامل اخلاقيات المدينة الامريكية ان لافرق بين البلدة الامريكية والمدينة الامريكية. وهو يرى ان الدعارة مثلا من صفة المدينة ولكن العاملين بها من القرى المجاورة، وان المنحرفين في القرى لايقل عددهم عن المنحرفين في المدن وهكذا وهو يعتقد ان للمدينة فضائل كثيرة وحسنات تزيد كثيرا عن رذائلها[١٨].

اما وجهة نظر سترونج (Strong) فهي ان المدينة «مادية» Materialistic والمدينة المادية هي اسوأ انواع المدن. وقد وصل الى هذه النتيجة بعد استقرائه للمدن الامريكية في نهاية القرن التاسع عشر. ومعنى المدينة المادية عند سترونج ان التقدم والنمو المادي في المدينة لايوازيه تطور عقلي اخلاقي. وقد اوجدت الثورة الصناعية اقتصادا صناعيا ارستقراطيا ونظام حكم ديموقراطيا. وهذان النظامان على طرفي نقيض. فكلما ازداد نمو المدينة، على حد رأى سترونج، كلما ازداد نفوذ الادارة الفاسدة. وهو يعتقد ان النظام الارستقراطي الصناعي يزيد الهوة بين ملاك المصانع والعمال مما يتيح فرصة للانحراف والاجرام وبذلك لاتقوى الادارة الديموقراطية على وقف تيارات الانحراف والاجرام وتتحول الى ادارة فاسدة[١٩].

---

١٧ - Adna F. Weber, op. cit. pp. 369-371.

١٨ - Ibid. p. 407.

١٩ - Jashia Strong, **The Twentieth Century City,** (New York: Barker and Taylor, 1898), pp. 53 — 78.

ومع ظهور المدرسة الاجتماعية وبروز اقسام علم الاجتماع في الجامعات الامريكية بداية القرن العشرين وجه علماء الاجتماع الانظار الى دراسة مشكلات المدن. ففي سلسلة من المقالات التي خرجت من جامعة شيكاغو في الفترة ١٩١٥ - ١٩٢٥ كان التركيز على دراسة المشكلات التي اثارها كل من كولي ووبر وسترونج. وتعتبر هذه الدراسات المحاولات الاولى لوضع نظرية المدينة. وقد جمعت هذه المقالات في كتاب واحد تحت عنوان المدينة **The City** ونشر سنة ١٩٢٥ لمولفيه روبرت بارك (Robert Park) وارنست برجس (Ernest Bergess) ورودريك ماكنزى (Roderick Mckenzie) ويتعرض بارك في الصفحات الاولى من الكتاب الى الاطار العام لنظرية البيئة (Ecology) في تفسير المدينة. وهو يرى ان المدينة «عادة طبيعية للرجل المتحضر» بالمعنى العام للتراث الحضري واشكاله. والمدينة عند بارك هي تلك التي تخضع لقوانينها الخاصة بها والنابعة عنها والتي تخص وجودها المادي ونظامها الاخلاقي. وما ينطبق على الوحدة الشاملة للمدينة ينطبق ايضا على اجزائها. ولكن التطور الصناعي للمدينة يؤدي الى تقسيم العمل والتخصص فيه الامر الذي يؤدي الى تغيير الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتراثية القائمة على اسس العلاقات النسبية العائلية او القبلية او الطبقية او التجمعات الخاصة ومالى ذلك، وينمو بعد ذلك نظام اجتماعي اقتصادي قائم على العمل ونوعه. وتستبدل العلاقات الفردية القائمة على اساس غير مباشر الى علاقات قائمة على المواجهة المباشرة. وعليه تتغير اشكال العائلة وتنتقل من الشكل الممتد الى الشكل الصغير، وتحتل المدرسة وظيفة الاسرة وتقل حدة نفوذ التعاليم الدينية[٢٠].

النقطة الجوهرية في نظرية بارك ان المدينة تمثل نظاما داخليا في المكان وتنتج قوانينها الخاصة بها. اما عن كيفية تطوير نظامها الداخلي في المكان فيمثل القسم الثاني من الكتاب ويمثل القسم الثالث البحث في كيفية انتاج القوانين وتطويرها. اما عن اتساع المدينة فيرى بيرجس ان المدينة تتسع حول مركزها الصناعي ويكون المركز قد احيط بمنطقة مليئة بالمصانع الصغيرة ومكاتب رجال الاعمال وتمتاز هذه المنطقة بأن الملكية فيها تستعمل لاغراض العمل في معظم الاحيان ومساكنها سيئة للغاية واجور السكن قليلة. اما المنطقة الثالثة فيقطنها العمال الذين يرغبون في السكن على مقربة من اماكن عملهم، وغالبا ماتتحول هذه المنطقة الى مكان سكن سيىء للغاية (حارات

٢٠- Robert E. Park, «Suggestions for the investigation of Human Behavior in the Urban Enviornment,» In park, Burgess and Mckenzie, **The City**, (Chicago: Chicago University Press, 1925), pp. 1 — 46

وأزقة) . . اما المنطقة الرابعة حول مركز المدينة فهي مكان السكن الذي تمتاز بمبان جيدة تتسع لعائلات صغيرة العدد (٤ ـ ٦ افراد) اما المناطق الاخرى فهي مناطق الضواحي التي تبعد في الغالب عن مركز المدينة مدة نصف ساعة او ساعة بالسيارة .

ويرى برجس ان امتداد هذه المناطق وتطورها ناتج عن كيفية انتقال الافراد في حياتهم العملية من مركز الى اخر. من التقدم او التقهقر. فكلما تقدم الافراد انتقلوا الى المنطقة الرابعة او الخامسة واذا فشلوا فهم يتراجعون الى المنطقة الاولى او الثانية وهكذا[٢١].

واما عن تطوير قوانين المدينة فقد كان من اختصاص ماكنزي . وقد اخذ ماكنزي فكرة تطوير القوانين عن علاقة النباتات والحيوانات في البيئة الطبيعية مع بعضهم بعضا من جهة وعلاقتهم بالبيئة من جهة اخرى. والعلاقات الانسانية عند ماكنزي تتأثر بالبيئة ايضا. واعتمد ايضا على النظرية الداروينية في قضية التنافس بين الافراد والبقاء للاصلح والاقوى. والقوانين الانسانية مرتبطة بالعلاقات الانسانية وعندما تتغير القوانين تتغير العلاقات تباعا بما ينتج عن ذلك من مشاكل اجتماعية واقتصادية .

تقسم النظرية البيئية المجتمعات الى انواع : مجتمعات خادمة كالقرى الزراعية ومجتمعات تجارية تقوم بوظيفة الجمع والتوزيع كأن تجمع موادا اولية من البيئة وتوزعها على الاسواق التجارية ومجتمعات صناعية تقوم بوظيفة تحويل المواد الخام الى مواد استهلاكيه، واخيرا مجتمعات تنقصها القاعدة الاقتصادية كالقرى والمدن الترفيهية او قرى الجامعات ومراكز الفكر والحضارة او المجتمعات الدفاعية وهكذا . .

وهذه المجتمعات على اختلاف انواعها قد تصل الى ذروة اقتصادية معينة ان لم تستطع ان تنتقل الى شكل اخر فقد يصاحبها الركود او ان يعيد الكرة مرة اخرى بالهبوط ثم الصعود او ان تستقر في وضع معين او ان تتحلل تلقائيا . لكن اذا اخذت طريقها الى الانحدار فان التخلخل الاجتماعي سيؤثر في وضع المجتمع العام، ويزداد التنافس وسوف يعود الضعيف ليلزم اسفل الهرم او ان ينسحب من المجتمع ويبقى القوى على القمة كالعادة . وعليه فان التنافس الاقتصادي الذي ينظم المجتمع يصبح عنصرا مؤلما لافراده وفي هذه الحالة فان التقدم الصناعي والابداع الفكري هو الذي يتدخل في الامر مما يؤدي الى نقل المجتمع من حال الى حال اخر[٢٢] .

---

٢١ - Ernest W. **Burgess,** «The Growth of the City,» In **Ibid.** pp. 47-62.

٢٢ - Roderick D. Mckenzie, «Urban Community» In **Ibid.** pp. 63 - 79. On the idea of economic competision see - Adam Smith, **The Wealth of Nations,** (Chicago: Chicago University Press, 1976). Smith advocates a non - intervention policy in the market laws. The unseen hand, according to Smith, is capable of moving market smoothly.

لقد بقيت النظرية البيئية (الايكولوجية) في تفسير المدينة قائمة حتى الان. حتى ان كل من كتب في الولايات المتحدة عن المدينة كان متأثرا بهذه النظرية[٢٣] مع بعض التعديلات التي ادخلها علماء النفس او التاريخ او غيرهم[٢٤]. ولكن لابد من ملاحظة ان الباحثين عن نظريات المدينة من الامريكيين لايكترثون كثيرا بالقديم او الحفاظ عليه بل يركزون على الحاضر وتقليعاته الجديدة خلافا للاوربيين الذين يقدسون الماضي وتراثه على الرغم من ان منظري المدينة الامريكية هم نتاج التراث الاوربي ولكن احدا لابد ان يذكر ان المدينة الامريكية بالمعنى الاجتماعي حاولت التخلص من التراث الاوربي الذي يذكرهم بسلطة الملك المستبد. يقول سترونج في ذلك :-

ان الصراع من اجل الحرية انما يعني الصراع لتجنب ان تكون القوة السياسية في يد شخص واحد او في ايدي الاقلية. بل لتبقى القوة في يد الاكثرية وهذا يعني عدم مركزية الدولة وعندما تسقط الحكومة الشعبية لتحل مكانها حكومة جديدة فهذا يعني خلاص المجتمع من حكم الفرد القوى وهذا بدوره يعني مركزية القوة. وعلى ذلك

---

٢٣ -

See for example Nels Anderson and Edward Lindeman, **Urban Sociology,** (New York: Alfred A. Knoph, 1928); Maurice Davie, **Problems of City Life,** (New York. John Wiley, 1932); Niles Carpenter, **The Sociology of the City Life,** (New York: Longmans, Green, 1932); William Munroe, **The Government of American Cities,** (New York: Mac Millan, 1926); Rose Lee, **The City,** (New York: Lippincott, 1955); And Egon Ernest Bergel, **Urban Sociology,** (New York: McGraw - Hill, 1955).

٢٤ -

For the historical and social approach in the study of the city see Oswald Spengler, **The Decline of the West ,** (New York: Alfred A. Knopf, 1928), 2 Vols. Translated by Chales Francis Atkinson. Spengler's treatment for the City is in vol. 2 of the English translation chapters 4-6, pp. 85-186.

يعتقد اشبنجلر ان اساس تناقض نظام حياة الانسان هو بالفرق بين القرية والمدينة. ان اصل الحياة الانسانية انما هي الارض. وفي حياة المدن الحضرية فان الانسان يسلخ نفسه عن جذوره الارضية. ان الانسان المتحضر عبارة عن شخص واع متنقل، لاسكن له، يتمتع بحرية اشبه ما تكون بالحرية التي تمتع بها الانسان فترة الصيد وجمع الثمار او انسان فترة الرعي. وان التاريخ الانساني انما هو تاريخ الانسان الحضري. وان روح البلدة انما هي روح جماعية ذات طابع جديد. اما روح المدينة فهي روح مختلفة عن روح البلدة، انها تمثل خبرة جديدة ضواحي «Suburbs».

ويرى اشبنجلر اننا لانستطيع ان نفهم التاريخ الاقتصادي والسياسي الا بعد ان نفهم ان المدينة تطور انسلاخ المدينة عن الارض والتي بدورها تفسد وتفلس البلدة والقرية. ان تاريخ العالم انما هو تاريخ المدينة وكل تراث حضري ثقافي انما هو من اختراع المدينة وممثلا لنموذجها. فالمدينة ، على حد قول اشبنجلر، هي المقرر الوحيد، في مختلف العصور والازمان والدول والحضارات والامبراطوريات، لنوع الحكم القائم ونوع الاحزاب السياسية ونوع الثورة التي يجب اتباعها ونوع الديموقراطية التي من تحقيقها. باختصار فان المدينة هي التي تفرض وجودها على الدولة وما عليها فعله. وللمدينة دور فعال في الحركات الاصلاحية الدينية والاجتماعية، فهي التي تشذب من الاعتقاد الديني البحت وتدعو لوضع الاعتقادات الدينية القديمة التي تعتمد في وجودها على النبلاء ورجال الدين ليحل مكانهم رجال العلم والاختراعات. . . . وهكذا.

فان مركزية الدولة من خلال انتقال القوة من مجلس المدينة الى المحافظ يعني استمرار سقوط الحكومات الشعبية في مدننا[٢٥].

والواقع فان تجربة المدينة الامريكية انما هي نتيجة تجربة المدينة الاوربية، كما ان منظري المدينة الاوربية، تماما كما فعل الامريكيون حاولوا تجنب طراز المدينة القديمة ايضا. فقد نظر الاوربيون الى ان الاقدمين من امثال افلاطون لم يفهم طبيعة المدينة عندما قرر ضرورة حكم الفلاسفة وضرورة ان تحمي المدينة نفسها عن طريق القوة العسكرية. وقد نظر الى الملكية الخاصة وكأنها شر كبير وخاصة الغنى الفاحش. وان المدينة ذات الموقع على ساحل البحر مدينة غير محببة ابدا. وقد نظر الى اسبارطة على انها المدينة الثالثة وهي في الواقع لم تكن مدينة بل معسكرا عسكريا على الرغم من مقوماتها الاقتصادية. ويلاحظ القاريء منظري المدينة الاوربية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تركيزهم على مؤسسات المدينة اكثر من الموقع. وكذلك يمكن ان يضاف الى ذلك ان نظرتهم الى المجتمع بأنه عملية تاريخية وعليه يمكن تفسير قيام المدن عن طريق الاحداث الاجتماعية. والمؤسسات التي نظر اليها كالمؤسسات العائلية والدينية والقبلية وما الى ذلك والذي تطور فيما بعد الى مؤسسات الدولة القائمة على العقود القانونية[٢٦].

اما ماكس فيبر (Max Weber) فقد انطلق من فرضية السلوك الاجتماعي الذي يمكن ان يفسر لنا طبيعة المدينة واتجاه تطورها. وحيث ان مهمة علم الاجتماع هو شرح سلوك الانسان وتصرفاته في ابعادها الحقيقية فقد عمد فيبر الى شرح هذه التصرفات عن طريق العلاقات الانسانية. وعلى ذلك فالمدينة عند فيبر تحتوي على عناصر مختلفة من العلاقات الناتجة عن المواقف الاجتماعية. فقد ظهر في كل المدن القديمة والحديثة جميع انواع الناس واحتكوا معا سواء كانوا من النبلاء ام من الطبقات الدنيا. ويضرب فيبر امثلة شتى من العالم على ذلك كالهند وشرق افريقيا واليونان قديما. وان احتكاك هذه الانواع لايعني بالضرورة تفاهمهم معا. حتى ان ساكني المساكن الجيدة التي لاتبعد كثيرا عن المساكن الرديئة لايلتقون في وجهات النظر.

---

٢٥ - Josiah Strong, mentioned above, p. 86.

٢٦- للتعرف على التفسير القانوني للمدينة من خلال مؤسساتها والعقود المبرمة انظر في:-
Fustel de Coulanges, **The Ancient City,** (New York: Doubleday Anchor Books, 1956); G. Glotz, **The Greek City,** (New York: Alfred A. Knoph, 1930),translated by N. Mallinson. Glotz insists that the ancient city was a religious community. See also Sir Henry Maine, (New York: John Murray, 1894). In his evaluation to societies development Sir Maine states: «The movement of the progressive societies has hitherto been a movement from status to contract,» **Ibid** p.170.

ولكن فيبر يرى انه على الرغم من اختلاف الطبقات في المدينة الا ان تأثيرهم لايظهر الا من خلال جماعاتهم المختلفة ويرى فيبر ان كل عمل في المدينة مهما كان وضيعا يعتبر مهنة، وعقول ساكني المدينة مشغولة دائما بانطباعات متعددة وليس لديهم الوقت لاسترجاع صور الانطباعات هذه واعادة تشكيلها واختراع شيء جديد، بل على العكس من ذلك فهم غير صبورين على استرجاع الصور الذهنية التي يطبعونها في مخيلاتهم وعلى ذلك فلا يلاحظ اهتمام فيبر بنظرية المؤسسات للمدينة ولكنه اقرب لان يكون صانع نظرية يمكن تسميتها باعادة البناء الصوتي للمدينة. فهو مندمج في وصف سلسلة من المفاهيم التابعة كالمفاهيم الاقتصادية وعلاقة المدينة بالانتاج الزراعي، ومفاهيم السياسة والادارة، ومفهوم مدينة القلعة ومدينة المعسكر العسكري، ومفهوم المدينة كالسوق، وهكذا، وهو يحاول ايضا انتقاء العناصر المناسبة للمدينة من كل من هذه المفاهيم.

ان اهمية فيبر، والتي يعتقد الباحث انه تفوق على النظرية المؤسسية انما تكمن في نظريته عن التجمع المدني (Urban Community) ويلاحظ ارتباط مفهوم التجمع الفيبري بمفاهيم اخرى كمفهوم العمل الاجتماعي المتعلق بتصرفات الافراد ومفهوم العلاقات الاجتماعية التي لاتتم بمعزل عن العمل الاجتماعي، ومفهوم المؤسسات الاجتماعية التي تربط العلاقات الاجتماعية بوحدة واحدة واخيرا مفهوم التجمع الذي يعتبر وحدة التحليل الاسمى في خلق التجمع المدني. ويعتقد فيبر ان المدينة بهذا المعنى (معنى التجمع المدني ذي العلاقات الانسانية) لايوجود الا في المدينة الغربية ولابد لمدينة فيبر حتى تكون مدينة بالمعنى المطروح ان تتوفر فيها الشروط التالية:

١ـ التحصين الجيد ٢ـ السوق ٣ـ محاكم تحكم بقوانين ذاتية (وليست مستوردة)، ٤ـ جمعيات او اتحادات (كجمعيات الشباب او اتحادات العمال) ٥ـ استقلال سياسي ذاتي واخيرا ٦ـ ادارة منتخبة[٢٧].

المدينة الاسلامية العربية

حتى نتعرف على المدينة الاسلامية لابد من البحث عن نظرية المدينة الاسلامية، فهل هناك مدينة يمكن تسميتها بالمدينة الاسلامية وهل تحتوي المدن

---

٢٧ - Max Weber The City, (New York: The Free Press, 1958), translated and edited by Don Martindale and Gertrud Neuwirth.

الاسلامية على خاصية معينة لاتـوجد في المـدن الاخرى؟ وان وجـدت مثل هـذه الخصائص فهل هذا يعني ان للامر ارتباط بالدين الاسلامي او الفلسفة الاسلامية؟ والاهم من هذا وذاك اين تقف فكرة التضامن الجماعي في المدينة الاسلامية؟

الفكر، اي فكر، يعرف عن طريق تطبيقه العملي. ويبدو التطبيق العملي ومدى نجاحه من بناء المجتمع الذي يتألف من مدن وقرى. والاسلام ايضا لـه رسالتـه الخاصة وفكرة المميز، الا ان هذا الفكر لايمكن التعرف عليه الا من خلال مدينته. ويقترح بعض الذين بحثوا في المدينة الاسلامية ان هذه المدينة قد قامت واتسعت من خلال القوة العسكرية. وهم يؤكدون ان القوة كانت العنصر الحاسم في تقرير نوع اسوار وابواب المدينة، وهم يرون ايضا وعلى مستوى اقل تأكيدا، ان الاسلام ايضا له ضلع في الامر، اي انه لابد من وجود المدينة الاسلامية حتى يتعرف الافراد على معنى الحياة الاسلامية في مدينة الاسلام[٢٨]. وعلى ذلك فان المسجد الجامع هو نواة المدينة الاسلامية واول مايبنى فيها. ويلحق بالمسجد دار الامارة او الحاكم المسلم ثم بيت مال المسلمين فالسوق التجاري ثم الاماكن السكنية المقسمة على اجزاء حول المسجد ودار الامارة والسوق، ثم سور المدينة.

اما خارج السور فتوجد المدافن والطرق التجارية او الاراضي الزراعية وما الى ذلك[٢٩]. ويمكن ان يضاف الى ذلك وجود القانون الشرعي الديني الذي يجمع افراد المدينة الاسلامية معا. والواقع فان القانون المذكور هو الذي اعطى شخصية مميزة للمدينة الاسلامية. هذه الشخصية هي بمثابة القاسم المشترك الاعظم الذي يربط المدن الاسلامية جميعا معا من جهة والتي جعل من المدينة الاسلامية كيانا يستمر في وجوده خلال التاريخ من جهة اخرى. ويرى ماسنيـون (Massignon) ان المجتمع الاسلامي مجتمع تعاوني منذ البداية. وقد وجد في المدينة الاسلامية نوع من التنظيم الاجتماعي والسياسي المستمد من التعاليم الدينية[٣٠].

---

٢٨ ـ Georges and William Marcais, «La Conception des Villes dan L'Islam,» by Georges and «L'Islam et la Vie Urbaine,» by William. These studies were conducted in North Africe and represented at different conferences. These studies, however, are located in A. H. Hourani and S. M.Stern, (eds.), **The Islamic City,** (London: Cassirer, 1970), p. 12.

٢٩ ـ **Ibid.**

٣٠ ـ L. Massignon, «Sinf,» **Encyclobedia of Islam,** Vol. 4. See also R.B. Serjeant, (ed.) **The Islamic City,** (Paris: UNESCO, 1980), pp. 16-18.

واذا اخذنا وجهة نظر ماكس فيبر بالنسبة للمدينة وتوفر شروطها فان الشروط التي ذكرها لم تتوفر في المدينة الاسلامية وخاصة الجمعيات او الاتحادات والتي لاتسمح المدينة الاسلامية لها انطلاقا من نظرتها لوحدة الامة. وعليه يقرر فيبر ان المدينة التي تنطبق عليها شروطه لم توجد الا في الغرب، ولم تكن لتوجد في اسيا الا في فترات متقطعة وقصيرة[٣١]. وتتعارض وجهة نظر ماسنيون بالنسبة لقضية الجمعيات او الاتحادات التعاونية التي عرفتها المدينة الاسلامية وكانت احد مميزاتها.

يلاحظ التضارب في وجهتي النظر المطروحتين في وصف المدينة العربية. ويذهب الناس احيانا الى تأييد وجهة نظر ضد اخرى او رفض الاثنين ومحاولة ايجاد نظرة ثالثة قد تفسر الامر وقد تزيده غموضا وتناقضا. والواقع فانني لا اؤ يد كلا النظرتين فانني باحث وللخلاص من هذا التناقض الواضح في وجهات النظر ينبغي عليَّ ان اسأل بعض الاسئلة فاقول : هل هناك قانون عام تخضع له المدن كقانون ماكس فيبر واذا شتت احدى المدن عن جملة القوانين والقواعد المذكورة قلنا هذه ليست مدينة وتلك مدينة؟ وهل هناك ضرورة في تشابه المدن جميعا وخضوعها لقانون واحد او عدة قوانين؟ اذا اتفق احد على الاجابة عن هذه الاسئلة بالايجاب فاننا سنأخذ بوجهة نظر فيبر لنؤكد ان المدينة الغربية هي المدينة الوحيدة التي وجدت ومازالت موجودة وعلى ذلك فسوف نطلق اسماء اخرى على المدن الاسيوية والافريقية ومن ضمنها المدن الاسلامية. ولكن القضية اعمق من هذا وذاك : انني باحث لااهتم بالتسمية ايا كانت وانما اهتم بوجود الانسان كقيمة له ما له وما عليه في المجتمع المتضامن. وقيمة الانسان كقيمة له ثمن المواطن الذي يتمتع بالحرية والمساواة والمشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلاقات المنظمة المنسجمة هو ما ابحث عنه بغض النظر عن التسمية ان كانت مدينة او تجمعا سكانيا. وارى ان في قول فيبر وماسنيون كثيرا من الصحة. وسوف ابين ذلك بالمقارنة لابين المدينتين الغربية والشرقية بل بين المدينتين الاسلامية والعربية والتي ارى امتدادهما معا منذ ان تأسست دولة المدينة منذ هجرة الرسول (ص). وارى ضرورة الربط بينهما وذلك لان المدينة الاسلامية العربية قد جمعت تراثين معا: التراث الاسلامي والتراث العربي ممثلا الاول بالقواعد المدنية الشرعية وممثلا الثاني بالعادات والتقاليد والاعراف.

في مقال لحسن حنفي بعنوان «فلسفة المكان» يقول ان المدينة الاسلامية هي تعبير عن لقاء بين الزمان والمكان، والمكان عنده لايتم اختياره اعتباطا بل طبقا لمواصفات

٣١- Max Weber, cited above, p. 88.

هادفة. وهو يرى «ان المكان لقاء بين الطبيعة والفكر» وحيث ان الاسلام يرى الانسان مركزا للكون وسيده. . . فان اختيار المكان يتحدد طبقا لهذا (الفكر) في اواسط البقاع للسيطرة والاشراف على الاطراف، كما هو الحال في العواصم او على الاطراف للدفاع كما هو الحال في الثغور، او على السواحل للدفاع عن الشواطيء كما هو الحال في المرافيء[٣٢]. ويرى حنفي ان بناء المدن العربية الاسلامية قائم بناء على الفكر الاسلامي وفي ذلك يقول :

«ويتم بناء المدينة ايضا طبقا للتصور الاسلامي للعالم، محورها المسجد الكبير، مسجد المدينة الذي به يخطب الامام ويوجه الامة ويرعى مصالحها. وبه وحوله المدارس ودور العلم ومساكن الطلاب، والمكتبات. وحولها وسط المدينة من اسواق وحمامات ومرافق عامة فالمدينة لها قلب واطراف، مركز ودوائر، وفي المركز ايضا دور القضاء، وحاكم المدينة ويتم البناء طبقا للطبيعة التي ابدع الله صنعها من ارض خضراء، وماء، وهواء، وبالتالي تنشأ ضمن الدار، قطعة من الطبيعة وامتداد لها، كما نشأت اساليب التهوية الطبيعية وغابات النخيل في صورة اعمدة لانهائية في العدد كالنخيل الباسقات والفن الاسلامي العربي يعبر بوحداته الصغيرة اللامتناهية عن اللامتناهي، وعن التوحيد[٣٣]».

والواقع فان الاعمدة ذات الاعداد الكبيرة بقصد التهوية موجودة قبل الفن الاسلامي بكثير. ومثال ذلك : الفن البيزنطي كنيسة ايا صوفيا في استنبول، التي تحولت الى مسجد فيما بعد، وقبل ذلك عند اليونان، معبد البارثنون في اثينا وقل ذلك في عمارة المصريين القدماء (معبد الكرنك مثلا، وكلها مظهر من مظاهر التناسق بين فن المعمار وبين المناخ المائل للحرارة في كل المنطقة المدارية. وعن وجود المدينة الاسلامية في الزمان يقول :

«ولكن المدينة ايضا موجودة في الزمان، في عصر بعينه، وفي التاريخ. يتم التوسع فيها بناء على نفس التصور للعالم ما دام التصور مازال موجودا عند الاجيال المتعاقبة. ولاحرج في البناء على بقايا البنايات القديمة التي تعبر عن تصور اخر للعالم، فليست الحضارات متاحف متوازية بل يكمل بعضها بعضا ويحتوي الاكثر امتدادا الاقل امتداد. ولاتمتد القطيعة في التاريخ الا بعد ان يغيب التصور الاسلامي ويطغى عليه

---

٣٢ ـ حسن حنفي، «فلسفة المكان» في المدينة العربية: خصائصها وتراثها الحضاري الاسلامي (واشنطن دي سي، ١٩٨٢)ص ٢٠. والكتاب عبارة عن بعض ابحاث من ندوة المدينة العربية التي عقدت بالمدينة المنورة (٢٨ فبراير ـ ٥ مارس، ١٩٨١).

٣٣ ـ المرجع السابق، ص٢٠.

او يحل محله التصور الاجنبي عن تقليد وتبعية. وهنا يقع الانفصال في الزمان كما يحدث الخلط في المكان وتنشأ التجمعات والابنية المزروعة من بيئة الى بيئة اخرى فيثبت التغريب ويقوى الانفصال ولايرتبط بالتصور القديم الا هواة الفن من الفقراء او بناة القصور من الاغنياء[٣٤]».

اما اسماعيل سراج الدين فيدعو في مقاله «المدينة العربية وتراثها الحضاري الاسلامي بين المكونات المادية والمقومات المعنوية» ان ينظر المسؤ ولون الى الشمولية للمدينة العربية. ويعتبر هذه النظرة هي الكفيلة لتحقيق الرؤ ية الشاملة للمجتمع. وينطلق سراج الدين من قضية مؤ داها ان المكونات المادية للمدينة انعكاس لمقوماتها المعنوية. فالنتاج المادي هو نتاج فكري. فمكونات المدينة من عمارة وعمران وزخرف وديكور انعكاس للقانون ومؤ سسات السلطة وهو الامر الذي ينظم المعاملات بين الافراد، ويتحكم في الارض وتقسيمها ويربط استعمالها «اضف الى ذلك المؤ سسات الاجتماعية والاقتصادية التي تبحث عن تطور المجتمع العربي الاسلامي، الى جانب الفكر الذي هو دائما في حركة جدلية مع كل المكونات المادية[٣٥]».

من خلال الدراستين اللتين تعرضنا لهما يلاحظ غياب النظرية الواضحة في تشكيل المدينة من حيث ظهور التضامن الجماعي من جهة او بيان قيمة الفرد من جهة اخرى. فالدراسة الاولى لاتعدو ان تكون وصفا انشائيا بعيدا عن النسق العلمي ذي المتغيرات المتداخلة معا، بينما لاتزيد الدراسة الثانية عن كونها دعوة لتطابق الفكر مع العمل فيما يخص المدينة والواقع فان تطابق الفكر مع العمل هو جوهر القضية العربية الاسلاميةمنذ خلافة عثمان بن عفان، اذ تحول الفكر عن العمل واصبح الفكر في واد والتطبيق العملي له في واد آخر. وعليه يمكن ان يقال ان حديث ماسنيون فيه نوع من الصحة عن الروح الجماعية في مدينة دولة المدينة ولكن هذه الروح تضاءلت فيما بعد لتلعب القوة اوالثروة دورا كبيرا في احيائها.

ويحاول حوراني في مقدمة كتاب **المدينة الاسلامية** والذي هو عبارة عن حصيلة اوراق قدمت لندوة المدينة العربية التي عقدت في مقر جمعية مؤ رخي الشرق الادنى في اكسفورد سنة **١٩٦٥** الرد على فيبر بقوله : «ان مشكلة فيبر كانت دائما محاولته تفسير ظهور العقلانية في ادارة الحياة الصناعية في اوربا الحديثة، وهو يعترف ان هناك عوامل وظروف ساهمت في تطور المجتمعات الاوربية بطريقة تختلف عن المجتمعات الاخرى ومع ذلك فهو يعتبر اوربا المقياس الوحيد للتطور والتغير «ويعتقد حوراني ان عدم

٣٤ ـ المرجع السابق، ص٢٠.
٣٥ ـ المرجع السابق، ص ٢١ ـ ٢٤.

وجود التجمعات الاجتماعية في المدن الاسلامية لايعني غيابها او ان غياب النموذج الاوربي من المدينة الاسلامية يعني انها ليست مدينة. وهو يرى ان الظروف التي حاكت في المنطقة في ظل الدولة الاسلامية تتميز بظروف اقتصادية قاسية اهمها ندرة المياه الضرورية لحياة الاستقرار الزراعية. وعليه يجد حوراني ان الصراع بين الاعراب الرحل وساكني المدن كان من اهم العوامل التي ساهمت في غياب الروح الجماعية بالاضافة الى التركيبة السياسية الاجتماعية التي شاهدتها المدن الاسلامية في مختلف العصور الاسلامية[٣٦]».

في الواقع فان القضية تتركز في الفرق بين الفكر النظري والتطبيق العملي. فالاسلام كعقيدة اتى ليذيب العصبية ويلغي الحدود ويساوي بين الناس جميعا تضمهم وحدة الخضوع للارادة الالهية وطاعة شريعته خلافا لمجتمعات شبه الجزيرة العربية التي كانت قائمة على العصبية القبلية. باختصار شديد فان المجتمع الاسلامي لايقوم الا اذا غذيت فيه العقيدة الاسلامية. وللمجتمع الاسلامي خصائص ومميزات نص عليها القرآن الكريم فوحدة المجتمع وتطبيق العدالة بين افراده من مميزاته. وتقوم الحياة الاجتماعية في المجتمع الاسلامي على قواعد ثابتة من اجل الاستقرار وازدهار الفرد والجماعة على السواء، اذ لامكان للطبقية او سيطرة جماعة معينة او فرد معين على الاخرين. وعلى الصعيد الاقتصادي فقد حث الاسلام على ضرورة العمل شريطة عدم تعارض العمل للشرع. ولاتقتصر الحياة السياسية في الاسلام على فرد دون اخر او طبقة دون اخرى فهي ليست دولة العمال كما انها ليست دولة الرأسمالية. والقرآن هو دستور الدولة الاسلامية. وتكون السيادة في الدولة الاسلامية لله وحده. فهي ليست للحاكم كما انها ليست للشعب.

هذه اهم المباديء التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الاسلامية. ولكن التطبيق العملي لهذه المباديء تداخلت به متغيرات كثيرة اهمها العادات والتقاليد مما جعل المجتمع الاسلامي، او سمِّ ذلك ان شئت المجتمعات الاسلامية، غائبة الهوية : فلا هي اسلامية خالصة وليست هي عربية خالصة، الامر الذي لم ينعكس على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فحسب بل على حياة المدينة الاسلامية بما في ذلك شعور التضامن الجماعي او قيمة الانسان من حيث تمتعه بالحرية والمساواة والمشاركة السياسية[٣٧]. وقد يكون في حديث عبد الرحمن

---

٣٦ - Hourani and Stern, cited above, pp. 15-19.

٣٧ ـ لمناقشة تفاصيل التطبيق العملي للمعتقدات الاسلامية انظر في احد ظاهر التنشئة الاجتماعية والسياسية في العالم العربي (الزرقاء: المنار، ١٩٨٥) الفصل الاول.

الكواكبي كما عرضه في كتاب **طبائع الاستبداد** عن كيفية التحول في التطبيق العملي في الدول الاسلامية مؤشر للحوار الجاري أذ يقول :ـ

«. . . ثم جاء الاسلام مهذبا لليهودية والنصرانية، مؤسسا على الحكمة والعزم، هادما للتشريك بالملكية، ومحكما لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديموقراطية والارستقراطية، فأسس التوحيد، ونزع كل سلطة دينية او تغلبية تتحكم في النفوس او في الاجسام، ووضع شريعة حكمة اجمالية صالحة لكل زمان وقوم ومكان، **واوجد مدينة فطرية سامية** واظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين.ـ. (الذين) فهموا معنى ومغزى القرآن النازل بلغتهم وعملوا به واتخذوه اماما، فأنشأوا حكومة قضت بالتساوي حتى بين انفسهم وبين فقراء الامة في نعيم الحياة وشظفها، **واحدثوا في المسلمين عواطف اخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية**. . (وقد اخذ هذا النظام) بالتناقض منذ عهد عثمان الى الان. . . .[٣٨]»

وعلى الرغم من تحليل الكواكبي لفترة ظهور الاسلام ودولة المدينة وخلافة ابي بكر وعمر الا ان احدا لابد ايضا من النظر في الاسباب التي وقفت حجر عثرة في سبيل استمرار هذا النظام السياسي الاجتماعي الاقتصادي او استمراره مع التناقض الذي اشار اليه الكواكبي. واعتقد ان مؤرخي الدولة الاسلامية قد خاضوا في هذا الامر واتوا بأسباب عديدة تتراوح بين دخول العنصر الجديد من غير العرب الى حظيرة الاسلام او ان شعور العربي بعدم قدرته التنازل عن عاداته التراثية القديمة ونظرته التعصبية الى العائلة والقبيلة او امور غير هذه وتلك. وسوف لا اركز هنا على مثل هذه العوامل ولكني سأثير موضوعا نظريا قابلا للنقاش في هذا الصدد منبعه الحرية الفردية وغيابه منذ انتهاء دولة الخلفاء الراشدين وغياب الحرية الفردية عامل اساسي للوقوف امام التفكير العلمي المنظم صانع المدينة والمدنية. ومفهوم الحرية في الحضارة العربية الاسلامية تختلف اختلافا كليا عن المفاهيم الفلسفية في الحضارات الاخرى، وخاصة الحضارة الغربية التي ينتمي لها ماكس فيبر. فالحرية في الحضارة الاولى ليست هدفا في حد ذاتها، كما انها لاتعني فهم القوانين الطبيعية والعمل بمقتضاها. ان الحرية هنا اقرب ماتكون الى المفهوم الصوفي للكلمة. فهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدين. وهي لاتعنى حرية الارادة الفردية على الاطلاق. وتظهر هذه الحرية من خلال الاطار العام الذي نص عليه الدين. وبناء عليه فان السلطة هي سلطة الدين واذا كان الامر كذلك، فان دور مفهوم الحرية لاينطبق على الفرد الذي يحاول تغيير مجتمعه لان هذا

---

٣٨ ـ عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٢) ص ٣٧ ـ ص٣٨ من ديوان النهضة الذي جمع فيه أدونيس وخالده سعيد مختارات من نصوص الكواكبي.

يعني تدخلا في شأن الارادة الالهية. ومن الواضح ان تعريف مفهوم الحرية في الحضارة العربية الاسلامية لايزيد عن قبول المرء لدوره خاضعا للسلطة الدينية فقط، الامر الذي يؤدي الى استغلال المفهوم وتحويره لصالح السلطة التي تملك القوة في المجتمع. وقد لاابالغ ان قلت ان النظرة الطبيعية العربية الاسلامية عند تفسيرها للكون تقوم على اساس ديني سهل وبسيط ومؤداه وجوب طاعة مخلوقات الله لله، (المخلوقات هنا تعني كل شيء بما في ذلك الانسان)، وذلك ضمانا لرضا الله وطمعا في جنته واتقاء لعذاب ناره. فاذا ظهر خلاف بين اختيار الانسان لعالمه والعالم الاخر فلا بد من اختيار العالم الاخر ابتغاء مرضاة الله[٣٩].

غياب الحرية الفردية افسحت المجال لظهور الاستبداد والمستبدين. واستعان المستبدون على حد قول الكواكبي «بمسوح الدين» لتأييد مصالحهم في تحقيق غاياتهم كأن يتلقى الناس قواعدهم واحكامهم بغير جدل ونقاش او تفتيت الناس الى احزاب وشيع كما انتصر الحكام المسلمون في فترات مختلفة لجماعات دينية مختلفة كالمتصوفة مثلا وبنوا لهم التكايا وكانت منزلتهم رفيعة الامر الذي لم يتم الا على حساب جماعات اخرى داخل المجتمع[٤٠]. ولم يتغير المرفق السياسي بقليل او كثير في العالم الاسلامي او العالم العربي الحديث بشكل يزيد او يقل حسب ماتتطلبه نظرية الامن للسلطة الحاكمة. وسوف نشير الى تحليل عام لهذه القضايا في الجزء التالي من هذه الدراسة والمتعلق بالمدينة الخليجية بعد النفط.

المدينة الخليجية بعد النفط

يمكن رسم المقارنة بين بناء اوربا بعد الحرب العالمية الثانية وبناء المدينة الخليجية بعد ظهور النفط. والمقارنة هنا تعني البناء العمراني فقط بغض النظر عن علاقة العمران بالاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وقد طرح موضوع المقارنة لاجل بيان الخطوط العريضة التي اتبعتها اوروبا بعد تدميرها من جراء الحرب

---

٣٩ ـ لمزيد من التفاصيل انظر في احمد ظاهر، فكرة الجامعة «في مجلة **المستقبل العربية** (بيروت)، عدد ٧٤، ١٩٨٥، ص ١٥٣ ـ ص ١٥٤

٤٠ ـ يرى حوراني ان الزوايا والتكايا كانت تؤلف جماعة متجانسة وتعمل كوحدات اجتماعية كذلك المطلب الذي رأه ماكس فيبر في المدينة الغربية. والواقع فان الفرق بين ما قصده فيبر وبين هذه الفئات الصوفية التي كانت تعمل لصالح الحاكم ضد فئات اخرى داخل المجتمع مما يؤدي الى ضياع فكرة التضامن الاجتماعي او الروح الاجتماعية للظهور والقوة وبالتالي الى ظهور قيمة الفرد متميزا بالحرية والمساواة والمشاركة السياسية. انظر في حوراني وستيرن، **المدينة الاسلامية** (مجموعة اوراق باللغة الانجليزية)، ذكر سابقا، ص٢٩ ـ ص٣١. وللنظر في وجهة معاكسة لحوراني وستيرن انظر في الكواكبي، ذكر اعلاه، ص٣٤ ـ ٤٧.

والخطوط العريضة التي اتبعت في المدينة الخليجية والتي غيرت معالمها القديمة الى طراز اشبه ما يكون بالطراز الاوربي نتيجة للثروة النفطية.

في دراسة عن **الطرق الرئيسية والمدينة** يشير لويس مامفرد (Mumford) الى ان المدينة الاوربية بعد الحرب العالمية الثانية قد اتخذ بناؤها العمراني طابعا مأساويا كبيرا. فقد وقعت اوروبا في نفس الاخطاء الفنية التي وقعت فيها الولايات المتحدة الامريكية كتركيزها على الابنية العالية والارصفة الاسمنتية، واستعمالها للسيارات الفخمة الضخمة ذات التكلفة المرتفعة والتي اضحت المدينة تعج بها. فاذا كان الغرض من استعمال السيارة، على حد رأى مامفرد، ربط الريف بالمدينة بالسرعة الممكنة وباقل التكاليف، فقد اوجدت وسيلة النقل هذه قضايا ازدحام الشوارع وازعاج المارة، الى جانب تلوث المكان. لقد كانت فكرة امتلاك السيارة في اوروبا، قبل الحرب العالمية الثانية، ميزة مقصورة على الطبقة العليا فقط مما جعل المدينة مكانا بعيدا عن العناء والازعاج. وقد تغير الحال واضحت المدن الاوربية مدنا مزدحمة بالسيارات والسكان مما اضطرها الى بناء الطرق الرئيسية وبناء الجسور المعلقة التي تزداد تباعا مع زيادة السيارات.

وقد تنبهت اوروبا الى اخطار ماينتج عن تركيز المباني الحكومية في مكان واحد داخل المدينة فعمدت الى التخفيف من وطأة الازدحام عن طريق بناء مستوطنات (ضواحي) مستقلة بحد ذاتها على اطراف المدينة. ويعني الاستقلال هنا الاكتفاء الذاتي. فيتوفر في هذه المستوطنات الجمعيات الاستهلاكية والمستوصفات وعيادات الاطباء والمدرسة والبريد ومكاتب الدولة ومراكز صناعية صغيرة ومراكز حضارية كدور الخياله ومعارض النحت والرسم والتصوير وما الى ذلك مما يخفف الضغط عن المدينة المركز[٤١].

وتشترك المدينة الخليجية مع المدينة الاوروبية باعتمادها على النمط الغربي في الفن المعماري الذي يركز على البنايات المرتفعة التي لاتقل عن ثلاثة ادوار والارصفة الاسمنتية والسيارات الفخمة المستوردة. وقد ادت عوائد النفط الى الاستهلاك الشديد وعدم الانتاج، كما سنلاحظ بعد قليل بنوع من التفصيل. والواقع فقد اصبحت المدينة الخليجية سوقا ضخما للاستهلاك العام. واذا كانت اوروبا قد تهدمت اجزاء كبيرة منها من جراء الحرب العالمية الثانية ورأت ضرورة ربط الريف بالمدينة بوسيلة سريعة كالسيارة من اجل البناء والتشييد، فان مدن الخليج العربي قد ازدحمت

٤١- Lewis Mumford, **The Highway and the City**, op. cit., pp. 16 — 39.

والخطوط العريضة التي اتبعت في المدينة الخليجية والتي غيرت معالمها القديمة الى طراز اشبه ما يكون بالطراز الاوربي نتيجة للثروة النفطية.

في دراسة عن **الطرق الرئيسية والمدينة** يشير لويس مامفرد (Mumford) الى ان المدينة الاوربية بعد الحرب العالمية الثانية قد اتخذ بناؤها العمراني طابعا مأساويا كبيرا. فقد وقعت اوروبا في نفس الاخطاء الفنية التي وقعت فيها الولايات المتحدة الامريكية كتركيزها على الابنية العالية والارصفة الاسمنتية، واستعمالها للسيارات الفخمة الضخمة ذات التكلفة المرتفعة والتي اضحت المدينة تعج بها. فاذا كان الغرض من استعمال السيارة، على حد رأى مامفرد، ربط الريف بالمدينة بالسرعة الممكنة وباقل التكاليف، فقد اوجدت وسيلة النقل هذه قضايا ازدحام الشوارع وازعاج المارة، الى جانب تلوث المكان. لقد كانت فكرة امتلاك السيارة في اوروبا، قبل الحرب العالمية الثانية، ميزة مقصورة على الطبقة العليا فقط مما جعل المدينة مكانا بعيدا عن العناء والازعاج. وقد تغير الحال واضحت المدن الاوربية مدنا مزدحمة بالسيارات والسكان مما اضطرها الى بناء الطرق الرئيسية وبناء الجسور المعلقة التي تزداد تباعا مع زيادة السيارات.

وقد تنبهت اوروبا الى اخطار ماينتج عن تركيز المباني الحكومية في مكان واحد داخل المدينة فعمدت الى التخفيف من وطأة الازدحام عن طريق بناء مستوطنات (ضواحي) مستقلة بحد ذاتها على اطراف المدينة. ويعني الاستقلال هنا الاكتفاء الذاتي. فيتوفر في هذه المستوطنات الجمعيات الاستهلاكية والمستوصفات وعيادات الاطباء والمدرسة والبريد ومكاتب الدولة ومراكز صناعية صغيرة ومراكز حضارية كدور الخياله ومعارض النحت والرسم والتصوير وما الى ذلك مما يخفف الضغط عن المدينة المركز[٤١].

وتشترك المدينة الخليجية مع المدينة الاوروبية باعتمادها على النمط الغربي في الفن المعماري الذي يركز على البنايات المرتفعة التي لاتقل عن ثلاثة ادوار والارصفة الاسمنتية والسيارات الفخمة المستوردة. وقد ادت عوائد النفط الى الاستهلاك الشديد وعدم الانتاج، كما سنلاحظ بعد قليل بنوع من التفصيل. والواقع فقد اصبحت المدينة الخليجية سوقا ضخما للاستهلاك العام. واذا كانت اوروبا قد تهدمت اجزاء كبيرة منها من جراء الحرب العالمية الثانية ورأت ضرورة ربط الريف بالمدينة بوسيلة سريعة كالسيارة من اجل البناء والتشييد، فان مدن الخليج العربي قد ازدحمت

٤١- Lewis Mumford, **The Highway and the City**, op. cit., pp. 16 — 39.

بالسيارات نتيجة للثروة والغنى ولم تفكر هذه المدن بتبني المواصلات السهلة كالدراجة مثلا. فقد لاتليق الدراجة بالمجتمع الثري. والواقع فان المدن الخليجية تعاني من اختناق مروري هائل على الرغم من بنائهم للطرق الواسعة وبنائهم للجسور المرتفعة. اضف الى ذلك ان الطراز الغربي في البناء المعماري قد حل مكان البناء التراثي القديم الذي لم يعد يتلائم مع الحياة الجديدة بعد النفط والواقع فان غياب المعمار القديم يعني غياب جزء من التراث العام.

ومما يزيد من اكتظاظ المدن الخليجية ادارتها المركزية فعلى الرغم من اتباع بعض المدن الخليجية تخطيطا اوروبيا ببناء ضواح شبه مستقلة كمدينة الكويت مثلا الا ان المكاتب الحكومية مازالت متركزة في داخل العاصمة المركز. فعلى الرغم من انتشار الجمعيات الاستهلاكية والمستوصفات ومكاتب البريد والخدمات السكانية الاخرى في ضواحي العاصمة الا ان الادارة العامة مازالت تتركز داخل المدينة.

ولكن مشكلة المدينة الخليجية لاتنحصر في عمرانها بل مشكلاتها عدة وعلى رأسها الثروة التي اثرت على وجود المدينة الخليجية السياسي والاجتماعي والاقتصادي والتراثي، فعلى الصعيد السياسي فان الباحث ينظر الى قضية الامن والاستقرار وما يمكن ان يتأثر به على المستوى الداخلي بما يتضمن ذلك قضايا كالشرعية والمشاركة السياسية ونوعية الادارة الحكومية، وعلى المستوى الخارجي بما يتضمن قضايا الحدود والدفاع والعلاقات الخارجية والاستثمار الخارجي ومأأشبه. اما على الصعيد الاقتصادي فان الباحث يؤكد نمط الاستهلاك المتبع والاعتماد الكلي على الانتاج الغربي، واما الصعيد الاجتماعي فهو موضوع العلاقات الاجتماعية من افراد المجتمع وخاصة علاقة الرجل بالمرأة والروح الجماعية. واخيرا يتناول موضوع التراث، اثراستيراد الافكار الجديدة والتكنولوجيا على الاوضاع التراثية العامة.

حقا فان الباحث يجد نفسه مضطرا عند الحديث عن المدينة العربية الاسلامية بشكل عام، والمدينة الخليجية بشكل خاص، الخوض في قضية الامن والاستقرار للنظام السياسي القائم بغض النظر عن شكله، والذي يعني قوته واستمرار وجوده القائم على معايير الشرعية والمشاركة السياسية وحرية المواطن واظهار قيمته وعلاقته بالدولة، وذلك من اجل بحث علاقة المواطن بالمدينة استعداد لتقرير اي من النظريات التي يمكن ان تنطبق على وضع المدينة الخليجية.

تتعلق نسبة كبيرة من قضية الامن والاستقرار بقضية التطور والتقدم التي وجدت

---

٤٢ - Valari York, The Gulf in the 1980s, (London: Chatam House, 1981), p. 17.

مدن الخليج لابد من الانخراط بها بعد الطفرة التي شاهدت ارتفاعا في اسعار البترول، وعلى وجه التحديد في الفترة ١٩٧٣ ـ ١٩٨٠ وتتطلب القضية اثارة اسئلة عديدة منها على سبيل المثال: الى اي حد تطمح مدن المنطقة بأن تتطور وتتقدم وتنمو اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وتحاول في الوقت نفسه ضمان امنها واستقرارها؟ وهل تستطيع الانظمة السياسية القائمة امتصاص التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الناجمة عن التمدن والتحديث؟

فعلى الصعيد السياسي فان الباحث هنا ينظر الى قضايا الشرعية والهوية والمشاركة السياسية عن طريق المجالس النيابية. وتخبرنا النظرة الاولية لمثل هذه المفاهيم في المدن الخليجية بأنها مفاهيم وظواهر جديدة. فعلى الرغم من اختلاف طبيعة الانظمة السياسية في المنطقة سواء كانت ملكية او امارة فان الهدف الاول والاخير انما هو استمرار وديمومة النظام الحاكم الذي يتمثل بنظام الاسر.

وتنحصر اهمية الشرعية في تدعيمها للثقافة السياسية وتقبل قواعد وانظمة السلطة السياسية. وتعاني المجتمعات الخليجية بوجه عام من قضية شرعية الحكم ولاتنحصر المشكلة في نقص الشرعية بل في وفرتها. وتنبع المشكلة من مصادر متعددة اهمها الاوضاع القبلية والدينية والاقتصادية والاجتماعية المتصارعة. اضف الى ذلك وجود بعض الحركات السرية التي نتجت عن قضايا التحديث والتمدن. ولقد ذهبت بعض مجتمعات الخليج الى تجارب التمثيل السياسي، الا ان هذه التجارب غالبا ما تلغى اذا ناقشت المجالس النيابية قضايا تتعلق بالشرعية او امور تعرض امن النظام السياسي للخطر. ويمكن وصف الشرعية في العواصم الخليجية بحالة اخلاقية تخدم الوضع الراهن طالما ان هذه الانظمة قادرة على تقديم خدماتها لافرادها المحكومية مقابل اعطاء المحكومين ولاءهم للسلطة القائمة. او يمكن وصف القاعدة التي تقوم عليها شرعية انظمة دول الخليج لا بالمعنى الذي قصده ماكس فيبر عن طريق ادارة عقلانية توثق الحاكم بالمحكوم بل عن طريق قوة الحاكم واستعماله للثروة وتوزيعها لتصيب اكبر عدد ممكن من افراد المجتمع.

انه من الصعب قياس مدى تمثيل الانظمة السياسية الخليجية لشعوبها. وتختلف الانظمة في درجة تمثيلها السياسي. فبينما يسهل قياس المشاركة السياسية في دولة الكويت، يكاد يكون الامر مستحيلا في دول اخرى. ولكن الذي يحد من المشكلة ان شعب المنطقة، بشكل عام، يخضع للسلطة بسهولة ويسر، ولاتعنيهم السياسة كثيرا ويربطون هويتهم بالدولة لان الغالبية العظمى ترى ان انظمتها السياسية تعمل جاهدة للوصول الى الافضل. وهم يطلقون احكامهم نتيجة للمقارنة بين اوضاعهم

الاقتصادية التي سبقت وجود النفط وبعده ولكن احدا لابد من ان يأخذ بعين الاعتبار ان هناك كثيرا من التوقعات الشعبية التي تزداد يوما بعد يوم. ان كثيرا من المناقشات السياسية تدور على مستوى غير رسمي بين المواطنين. وتنحصر هذه المناقشات بين المعارف والمقربين فقط. ولاتعدو ان تكون حول الحصول على مزيد من الخدمات الحكومية. اما المطالب الشعبية فتتم عن الطريق التقليدي المتبع وهو مقابلة شيخ القبيلة او الجماعة للمسؤولين لتحقيق مايريدون. وتنحصر الحياة السياسية على الرجال دون النساء وليست لغير المواطنين اي حقوق سياسية. ويمكن وصف السياسة الخليجية بنموذج الراعي والرعية (Client - Patron Relationship) بمعنى ان يؤمن الحاكم الخدمات للمحكوم مقابل تقديم المحكوم ولاءه للحاكم.

ومفهوم الديموقراطية بمعنى حكم الشعب او حكم الاكثرية مع صيانة حقوق الاقلية في ان تصبح اكثرية، او دفع ضرائب مقابل التمثيل السياسي احد المفاهيم الغائبة في المدينة الخليجية. لقد اصبحت مجتمعات الخليج، على اثر تدفق النفط وارتفاع اسعاره، مجتمعات استهلاكية صرفة. وقد اصبح الشعب مأخوذ بالثروة والغنى ولاتهمه السياسة بقليل او كثير. ويجد الباحث ان هناك علاقة طردية بين فقدان الهوية وقلة الانتاج. اي كلما ازداد عدم معرفة الناس لهويتهم قل انتاجهم وكثر استهلاكهم.

اما على المستوى الاداري فقد صبغت الادارة بطابع شخصي واصبحت ملكية المكاتب الادارية مبالغ بها يحيطها التعظيم والتبجيل يصاحبها الفساد الاداري على درجة عالية من الانحراف. ومن الواضح ان كثيرا من الاعمال الادارية السيئة والمتكررة يغض النظر اليها خاصة اذا كان الامر يتعلق بغير المواطنين من الايدي العاملة الوافدة وكأن الدولة قد اقرت مثل هذه القواعد وخولت الامر للاداري القيام بما يريد بغير رادع او معاقبة. وتنبع المشاكل الادارية عن عدم وجود محاكم ادارية وانتشار البطالة المقنعة، وتكرار الاعمال الادارية وعدم وجود نظام تشجيعي للعاملين ومحاسبة المسيئين، وتؤدي الواسطة والعلاقات الشخصية والارتباطات العائلية والقبلية والدينية دورا كبيرا في صنع القرارات الادارية. وقد ادى غياب المراقبة الحكومية الادارية الى فساد اداري كبير.

واذا كان مفهوم الهوية (Identity) احد المفاهيم الاساسية في بناء المجتمع السياسي (Politcal Community) والروح الجماعية (Social Spirit) وبناء المجتمع والامة والدولة عن طريق علاقة الفرد بالاخرين داخل المجتمع من جهة ومن خلال انتماء الفرد الى الطبقة او الحزب او مجموعة دينية او ما شابه ذلك من جهة اخرى، ففي المجتمعات الغربية حيث تسير السياسة وفقا لنظام الاحزاب السياسية، يعرف الناس

انفسهم ويربطون هوياتهم بالحزب الذي ينتمون اليه وذلك عن طريق وسائل التنشئة الاجتماعية، اما دول الخليج العربي فلم تعرف المؤسسات السياسية كتلك الموجودة في الغرب. وعلى الرغم من ان دول المنطقة قد طورت على مجرى تاريخها الحديث، مؤسسات سياسية مرتبطة بالاسرة الحاكمة والقبائل المتميزة بسيطرتها ونفوذها، الا ان القبائل الصغيرة لها وضعها السياسي والاقتصادي الخاص. وتلاحظ الدراسات ان الولاء والهوية في دول الخليج العربي غالبا ما ترتبط باسم الحاكم اسميا وبالقبيلة والاسرة فعليا. ففي دراسة عن التنشئة الاجتماعية والسياسية في دول الخليج العربي قام بها كاتب هذه السطور وزميله فيصل السالم سنة ١٩٨٠ والمنشورة على شكل مقالات باللغة الانجليزية في مجلات مختلفة والتي كانت الدراسة الميدانية قد اجريت على عدد من طلبة وطالبات المدارس الثانوية والجامعية في المنطقة . ظهرت نتائج الدراسة كمايلي :-

طلبة دول الخليج العربي غارقين في التفكير التقليدي فالغالبية العظمى متدينون على طريقتهم الخاصة (فكرة الجبر والاختيار هي الغالبة ويردون كل شيء الى مشيئة الله حتى عندما يكونون هم انفسهم المخطئين كالسرعة في السياقة)، يطلبون النصيحة دائما من آبائهم وكبار السن او اي مسؤول ذو قرابة، ولائهم للعائلة والقبيلة اكثر من اي شيء اخر، ينظرون بمنظار ضيق لتحقيق اهدافهم الانية، ولايهمهم من هذه الاهداف سوى تلك المتعلقة بمصالحهم الخاصة، غامضون في تحديد هويتهم او بالاحرى فهم بلا هوية، ثيوقراطيون (دينيون) سياسيا، لايفرقون بين التفكير النظري والتطبيق العملي، يعتمدون اعتمادا كليا على العائلة في تأمين اغراضهم المادية والاجتماعية والنفسية، متململين ومراوغين في احاديثهم، متجنبين للاعمال التطوعية الاجتماعية الهادفة، متهورين وغارقين في احلام اليقظة، يخجلون من تحمل المسؤولية، لايقيمون وزنا لمدرسيهم ولا لتعلم لغات اخرى. اما على الصعيد النفسي فهم سريعي الاستثارة خالي الهموم ومتقلبي الاهواء والعواطف وينقصهم اعتناق المباديء.[٤٣]

---

٤٣ For more details on the issues of social and political socialization in the Arab Gulf States see Faisal Al-Salem, «The Issue of Identity,» and Ahmad Dhaher. «Gulf Youth and the Palestinian Problem,» «In **Le Vant,** (Pakistan), Winter, 1981, Vol. 1, No. 1; Al-Salem, «Gulf Student Analysis of Current Events,» and Dhaher, «Arab Gulf Youth: Self Image and Role, «In **Indian Journal of Politics,** Vol. 15, Nos. 1&2, (1981); And Dhaher, «Politics and Culture in the Arad Gulf States,» **Journal of South Asia and the Middle East,** Vol. 4, No. 3, (Philadelphia, 1981).

في الواقع فان هذه المقولات لاتصلح لبناء قاعدة من قواعد بناء التراث الحضري المدني، ولا تؤدي لبناء شخصية الفرد او بناء هوية للمجتمع او الدولة. وهي مقولات من نتاج المدينة الخليجية التي انعم الله عليها بنعمة النفط. ان استعراض مناطق احدى المدن الخليجية كالكويت مثلا يشير الى عدم الانصهار الاجتماعي وعدم اظهار الشعور الجماعي:

المنطقة السكنية	السكان	حضر/ بدو	اوضاعهم السياسية والاقتصادية
الشرق	قبائل الحساوية	بدو	مستوى اقتصادي جيد
٨٥٪من	الرشايدة	بدو	
اصل ايراني	العلوية	بدو	متدينون، محافظون
١٠٪ من	مطران	بدو	موالين للدولة
البحرين والاحساء	مسيل	بدو	
	الصوابر	بدو	
	البلوش	بدو	
القبيلة	قبائل اصيلة	حضر	اغنياء الكويت (تجار)
المرقاب	قبائل اصيلة	حضر	اغنياء الكويت (تجار)
الصالحين	قبائل اصيلة	حضر	اغنياء الكويت (تجار)
الشويخ	قبائل اصيلة	حضر	تجار (تحولت المنطقة الى صناعة)
الجهراء	عجمان	بدو	اوضاعهم الاقتصادية سيئة، نسبة الامية بينهم مرتفعة، ولائهم للقبيلة
	شمر	بدو	
	عنزة	بدو	
	الصلبة	(يقال انهم من شمال ايران)	
الصليبيخات	شمر	بدو	اوضاعهم الاقتصادية سيئة. يعتبرون من ذوي الدخل المحدود وولائهم لشيخ القبيلة
	الرشايدة	بدو	
الفروانية	مطران	بدو	
	الرشايدة	بدو	

*الاصيل (من هو من نجد وهو عكس البيسري الذي اتى بعد ظهور النفط).

جليب الشويخ	مطران	بدو	
	رشايدة	بدو	
العديلية	مطران	بدو	
	رشايدة	بدو	
كيفان	عتيبة	بدو	يمثلون الطبقة الوسطى الكويتية ولائهم لقبيلة عتيبة
الخالدية	عتيبة	بدو	
القادسية	قبائل	بدو	منخفض الدخل (محافظين سياسيا)
الفيحاء	قبائل	بدو	منخفض الدخل (محافظين سياسيا)
النزهة	قبائل عربية	حضر	ذوي دخل مرتفع.
	الكندري	قبائل غير	مزيج من القومين
	العوضي	عربية	مزيج من القومين والاشتراكيين
الدسمة	العوضي	غير عرب	قوميين واشتراكيين
فيلكا	السهول	بدو	دخل متوسط، محافظون سياسيا.
حولى والنقرة	ايدي عاملة وافدة	معظمهم فلسطينيون	ذوي الدخل المنخفض
الجابرية	رشايدة	بدو	مختلف الدخول
	عوازم	بدو	اشتراكيون وقوميون ومحافظون وخليط آخر
السالمية	ايدي عاملة وافدة	فلسطينيون مصريون.. الخ	دخول منخفضة
الرميثية	العوازم	بدو	
والبدع	مطران	بدو	دخول منخفضة ومتوسطة
	عجمان	بدو	
	الظفيري	بدو	واعلى من المتوسط..
	البراكي	بدو	محافظون سياسيا.
الاحمدي	عجمان	بدو	
والفنطاس	السهول	بدو	دخول منخفضة ومتوسطة
والفحيحيل	الفضول	بدو	محافظون سياسيا
	وايدي عاملة وافدة		

هذه المعلومات جمعت بواسطة مشاهدات الباحث الخاصة. المحافظ سياسيا من يربط ولائه بقبيلته، ورئيس القبيلة بدوره يقرر من يعطي الولاء.

الكويت وضواحيها

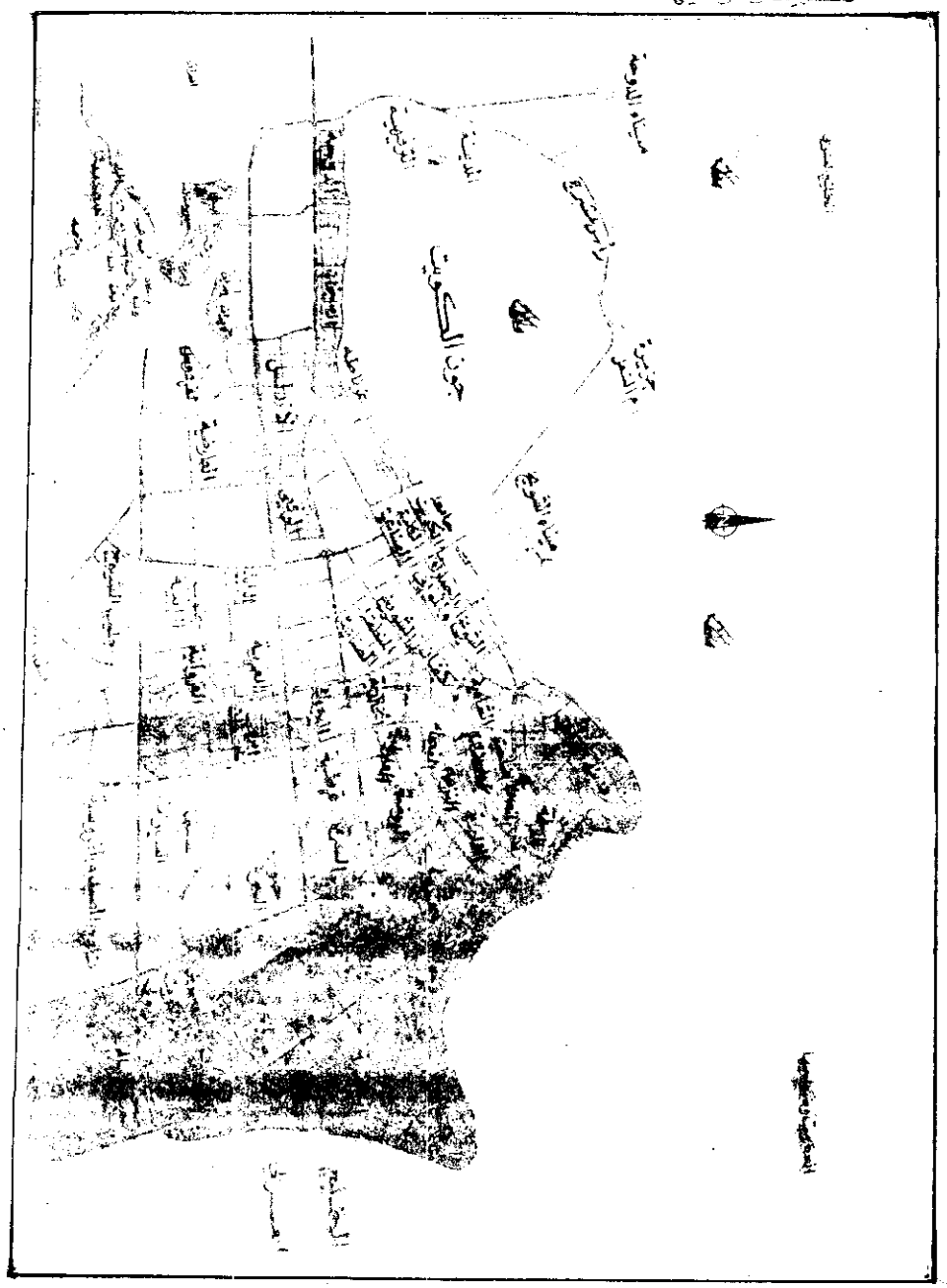

اذا كان التراث الاجتماعي من عادات وعرف ودين قد اكد على بعض القيم كالولاء والكرم والشجاعة وغيرها من القيم التي تلائم طبيعة الحياة الصحراوية القاسية، الا ان هذه القيم غالبا ما وقفت حجر عثرة في طريق التطور والتقدم العلمي. اما الدين فهو العامل الاخر الذي يشكل جزءا مهما من التراث ويظهر الدين في كل الاحوال داخل المدينة الخليجية بدءا من اللغة وانتهاء بعزل الرجال عن النساء. يؤكد الدين الاسلامي ضرورة خضوع الانسان لله وحده. وتفسر جملة الاعتقادات هذه حسب آراء مستعمليها اذ يرجعون كل نتيجة لحادثة الى مشيئة الله وقدره على الرغم من ان فلاسفة المسلمين قد بحثوا في الامر واكدوا ان الله عادل ولايمكن ان يكون غير ذلك ويشير التراث العربي بشكل عام الى اهمية الوحدة العائلية وعلى ذلك فان الفرد في حد ذاته لايشكل اهمية كبرى، وانما تظهر اهميته من خلال العائلة او القبيلة. ويلاحظ في منطقة الخليج مفاهيم قبلية متعددة كمفهوم الاصيل والبيسري. ويشير المفهوم الاول الى اولئك الذين يتسلسلون في النسب الى نجد واما الثاني فيشير الى غير ذلك. وتسمى هذه المفاهيم تسميات متعددة في دول الخليج الاخرى ولكن مضمونها واحد! والاصيل وغير الاصيل في صراع دائم بعضهم مع بعض. ولكن الظروف الاقتصادية بعد النفط جعلتهم يتناسون خلافاتهم في سبيل المصلحة الاقتصادية. وقد يفسر لنا هذا الوضع عدم قدرة العرب بالاجمال توحيد جهودهم الاقتصادية والسياسية. حتى ان بعض دول الخليج العربي ما زالت تفرق بين مواطنيها وتمنح جنسيات من الدرجة الاولى والدرجة الثانية. ففي مثل هذا الوضع العام كيف للباحث ان يتحدث عن وجود انصهار اجتماعي من خلال قيمة الفرد المواطن المرتبط بالوطن والدولة اذا كان مفهوم المواطن غائبا؟

وعلى الرغم من التبادل التجاري بين مجتمعات الخليج ودول اخرى تاريخيا الا ان هذه المجتمعات عانت وما زالت تعاني من عزلة حضارية واجتماعية.. وحتى اليوم،

وعلى الرغم من الثروة الاقتصادية الهائلة التي نتجت عن اكتشاف النفط الا ان ذلك لم يؤثر على ميولهم الصحراوية وخوف البداوة، كما وصف ابن خلدون المجتمع البدوي بدقة. والقضية التي تثير الانتباه هي ذلك التناقض الواضح بين القديم والحديث الذي يؤدي الى مزيد من الضغط على النظام السياسي. ان القواعد والقوانين التراثية القديمة وجدت نفسها فجأة في صراع مع قواعد وقوانين واخلاقيات جديدة لم يألفها المجتمع سابقا مما ادى الى حالة من الضياع والتشتت والتيه في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والنفسية. لقد اخذ افراد المدينة الخليجية يتمتعون باعلى دخل اقتصادي في العالم وبأعلى نسبة في المواليد واعلى نسبة في الزواج والطلاق لم يشهد لها مثيل. وقد

اخذت المنطقة تتحقق من الثمن الباهض الذي يجب عليها دفعه من جراء تغيير الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والسياسية والعسكرية والتي غالبا مافرضت عليها من الخارج، (زيادة اسعار النفط، التسليح، الاستثمار وغير ذلك من الامور التي قد تكون فرضت عليها من الخارج لعدم درايتهم في التخطيط والنظرة المستقبلية)، وعلى ذلك فلا غرابة من ملاحظة الباحث الذي تردد على المنطقة في مدة الثلاثين عاما الماضية، والذي يكتشف في كل مرة زيادة ظهور امراض العزلة وانفصام الشخصية واللهث وراء الثروة والغنى وان كان ذلك على حساب قيمة الفرد كانسان، وظهور الغربة والاغتراب بأنواعها المختلفة.

بفضل التغيير المفاجيء فان الجيل المتقدم في السن يسيطر على السلطة والثروة. اما الجيل الجديد فهو جيل مصاب بخيبة الامل نتيجة عدم قدرته على تغيير الاوضاع التقليدية وعدم قدرته على القيام بأعمال يطمح في تحقيقها. وتظهر عملية الولاء وطاعة القيم والتقاليد والعادات كنوع من محاذرة الوقوع في صدامات جانبية ولضمان حياة اكثر استقرارا وامنا. ففي سبعينات واوائل ثمانينات هذا القرن تغير الفكر العربي في منطقة الخليج والذي كان قد تأثر بالفكر القومي الذي امتد في خمسينات واوائل ستينات هذا القرن في عهد الرئيس الراحل عبد الناصر وحركة القوميين العرب، او الفكر الديني ممثلا بفكرة التضامن الاسلامي في عهد الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز ليحل مكانه فكر النفط: الفكر القائم على الاستهلاك وعدم الانتاج والذي امتد اثره ليشمل اجزاء كثيرة من العالم العربي اثر زيادة اسعار النفط.

فكر النفط، ادى الى التدفق المالي وحصول الافراد عليه بسهولة ويسر، وحيث ان وجود وسائل التمتع بالمال، بفضل القيود الاجتماعية والدينية، قليلة ان لم تكن معدومة، فقد تسابق الافراد للحصول على مزيد من المواد الاستهلاكية كما يتمثل الامر في التسابق على السيارات الضخمة ، وادى الامر الى مزيد من العنجهية والاستعلاء والتصرف الغريب الذي يلاحظ في قيادة الافراد لسياراتهم في المدينة الخليجية ، او على النقيض من ذلك، وهو امر سيء ايضا ادى بهم الى التقوقع على انفسهم متخذين من الدين وسيلة لذلك. فالفرد الخليجي، كما املت عليه ظروف مدينته، مبذر في مواضع لاتستحق التبذير، وبخيل في المواضع التي تتطلب السخاء.

وهم على الاجمال مسرفون في الاكل والشرب والحفلات مما جعل لديهم نوع من الازدواجية الممقوتة بالاضافة الى انهم يعيشون في خيالاتهم الخاصة.

والمتدينون منهم ليسوا بافضل حال، فهم يرفضون الحلول العملية خشية ان تتصادم نتائج هذه الحلول مع معتقداتهم الدينية وعليه فانهم غارقون في تفكيرهم

الـديني الخاص بهم، ويجـدون في الدين حـلا لكل مشـاكلهم وفي جميع الاوقـات والاماكن.

على القائمين على المدن الخليجية التي اصابها فكر النفط ان تعترف بـأن لديهـا عناصر مرضية خطيرة في الدرجة الاولى وان تبدأ بعمل شيء تجاهها في الدرجة الثانية فعلى هذه المدن ان لاتهتم باستيراد التكنولوجيا واستيراد الايدي العاملة الوافدة وبناء اضخم المطارات والمستشفيات والطرق والجامعات والمدارس دون النـظر الى اهمية استيراد العلم الذي يؤهلها لبناء ماترغب فيه. العلم موجـد النظريـات التي تبني الانسان الفرد اولا وتبني شخصيته وتبني ولاءه وانتماءه لمدينته ودولته. في الواقع فان فكر النفط قد ركز على البناء المادي واهمل الجانب المعنوي لانه وضع العربـة امام الحصان. وباختصار فان المدينة الخليجية بحاجة الى تكنولوجيا انسـانية بـدلا من التكنولوجيا المادية.

واما على الصعيد الاقتصادي فان الباحث لايبالغ ان قال ان الاقتصاد الخليجي، كالسياسة الخليجية، غامض وغير محدد بل وتائه. ويقول ابراهيم عويس في ذلك:ـ

«على الرغم من التدفق المالي الذي نتج عن الثروة البترولية، فان دول الخليج تبقى متخلفـة بالمعنى العـام للكلمة. ويعتمـد تقدمهم الاقتصـادي على نـوع السياسـة والاستراتيجية التي تتبع في تحقيق هذا التقـدم. ويعتمد هـذا ايضا عـلى الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة والسيـاسة المتبعـة في استعمال المصـادر الطبيعية». (٤٤)

ان الخصائص الاقتصادية للمدن الخليجية متشابهة الى حد كبير. فهي حتى كتابة هذه السطور استطاعت مجابهة المشاكل الاقتصادية التي لم تستطع دول اخرى مجابهتها. والواقع فان اسباب ذلك عديدة منها قلة عـدد السكان، وغيـاب البطالـة وغياب الصناعة والنشاط الصناعي الذي يؤدي لظهور اتحادات عمالية وجمعيات عمالية لها مطالبها الخاصة. اضف الى ذلك ان التدفق المالي الهائل استطاع ان يصل الى جميع فئات المواطنين وذلك من خلال الاغداق على التعليم والاسكان، الامر الذي قلل من مشاكل التحديث والتمدن. الا ان هذا لايعني ان المشاكل غيرمتوقعة الحدوث. ومن ضمن هذه المشاكل ما هو متعلق باستمرار الحرب العراقية الايرانية وتراجع اسعار النفط وشراء كميات هائلة من السلاح دون وجود الكوادر التي تستعمله، وعـدم القـدرة على الـدفاع عن آبـار البترول، ونـظام التعليم المتبع والتـوزيع السيـاسي والاقتصادي غير العادل، ومشاكل الاقتصاد اللامتكافيء، والانفجار السكاني وكثرة

٤٤ - Ibrahim Oweiss «Strateges for Arab Econonmic Development,» In Michael Hudson, **The Arab Future,** (Washington, D.C. George Town University Press, 1979, p. 46.

الاستهلاك وباختصار عدم القدرة على تبني خطة بعيدة الامد للتطور الاجتماعي والاقتصادي. فالمستقبل عندهم، كالسياسة والاقتصاد مبهم، وغامض ولا هدف له (ضمن استمرار الاوضاع) كالتوسع عشوائيا في استخدام التكنولوجيا الذي ادى الى انتشار نمط حضاري مشوه. كما ان مفهوم التخطيط للمستقبل لايتعدى ما يسمى بالمستقبل القريب (٥ ـ ١٠) سنوات.

وتشكل العمالة الوافدة الجزء الاكبر من عمال المنطقة. وهم يزيدون في بعض دول المنطقة عن عدد سكانها فهم يشكلون في دولة الكويت مايقارب من ٦٠٪ من المجموع العام للسكان وفي دولة الامارات العربية المتحدة تصل نسبتهم الى حوالي ٨٣٪ واما بالنسبة للتعليم فهناك فوضى تعليمية وعدم تنظيم.. فعلى الرغم من تزايد الاعداد المثقفة من المواطنين الا ان التكنوقراطيين والمتخصصين في هذه الدول غير موجودين ويتركز التعليم على الفكر النظري دون التطبيق العملي، ويلاحظ الامر في العالم العربي بشكل عام ان التفكير النظري هو عينه التطبيق العملي، ولايعلم الطلبة، حتى في المستويات الجامعية، ان الفكر النظري لاقيمة له اذا لم يدخل التطبيق العملي للاستفادة منه. ويبدو ان المشكلة ذات علاقة مباشرة بالتراث البدوي العربي التفكيري الذي ينظر نظرة ازدراء للعمل اليدوي والصناعي.

وقد ادى فكر النفط الى غنى فاحش ادى بدوره لتحطيم القيم الاخلاقية على المستوى القيادي الاداري ان لم يكن قد اصاب المواطنين كافة. وقد استغلت القوانين واللوائح بقصد جمع الثروة وفي اقرب فرصة ممكنة. يقول يورك في ذلك: ـ

«المشاريع الضخمة القائمة والوكالات المتخصصة وملايين الدولارات التي يرشيها المقاولون ادى بالذين يعملون في القطاع العام لاستغلال مناصبهم في الحصول على امتيازات شخصية. هذا التصرف شيء متعارف عليه في دول الخليج، الا انه يقابل بأمتعاض حينما تكون الفائدة منه كبيرة جدا. ويبدو ان بعض افراد الاسر الحاكمة شريكة في ذلك من خلال تعاملهم مع بعض التجار دون غيرهم، الامر الذي يؤدي للصراع بين التجار انفسهم من ناحية وبين التجار وافراد الاسر الحاكمة من جهة اخرى، واحيانا بين الفئات المذكورة جميعا وفئات الشعب خاصة اذا رأى الناس ان مقدراتهم الاقتصادية في خطر»[٤٥].

وعلى ذلك يلاحظ الباحث ان هناك بعدا شاسعا بين من يملك وبين من يملك القليل سواء كان ذلك على نطاق السلطة السياسية او الاقتصادية. اما السلطة السياسية والغنى الاقتصادي فقد جمع في ايد قليلة العدد (الاسر الحاكمة والتجار المقربين) والتي تتحكم في الاقتصاد العام كالبنوك والاسكان والتجارة وسوق الاسهم

---

٤٥ ـ Valari York, op. cit. p. 19.

المالي وجهاز الخدمات. وتزداد المشكلة عند التوزيع غير العادل بين المواطنين وغير المواطنين اضف الى ذلك ان المدن الخليجية مشبعة بجنسيات ولغات واجناس مختلفة، وكذلك فأن اختلاف المستويات المعيشية والمعتقدات الدينية والسياسية تضاف الى الخليط العجيب. وكل هذه الاختلافات مستعدة للتعايش معا طالما ان هناك نفطا يستخرج ورزق اقتصادي غير متوفر في اماكن اخرى.

وتعتمد المنطقة اعتمادا كليا على النفط كمصدر اساسي لاقتصادها واستقرارها السياسي. اضف الى ذلك فأن ابار النفط بدون حماية خاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار وسائل التدمير الحديثة. ان مايحافظ على النفط واباره في دول الخليج انما هو حاجة الدول الصناعية له.

فعلى النقيض من فترة ماقبل النفط فقد تغيرت اوضاع الناس، واصبحوا مبهورين بجمع المال بأقصى سرعة ممكنة وبطريقة سهلة. وبني الاقتصاد الخليجي حول الخدمات والبناء والتبادل التجاري. نفط مقابل سلع استهلاكية. وتؤدي الصناعة دورا ضئيلا جدا في الانتاج الوطني العام(GNP) اذ لايزيد عن ٤٪ ودور الزراعة ضعيف للغاية ولايزيد عن ٢٪.

وعلى العموم فقد فشلت دول الخليج في تبني خطط تنموية اقتصادية من شأنها التقليل من الاعتماد على الدخل الناتج من النفط. والاقتصاد الخليجي انما هو اقتصاد استهلاكي بحت، وأما الصناعات الخفيفة القائمة على مشتقات النفط او الزراعة والاستثمار وكل ما يعتمد على النفط فلا تعتبر انتاجا قادرا على التطور الاقتصادي. وما النفط الا هبة اتت بغير عناء وسكان المنطقة يعتمدون اعتمادا كليا على هذه الهبة. والباحث هنا لايعتقد ان هذه الظاهرة شبه الفريدة في التاريخ ظاهرة تقدم اقتصادي وذلك لغياب العناصر الاساسية للتقدم والتمدن والتحديث واهمها الانسان ومدينته.[٤٦].

---

٤٦ ـ للتعرف على مزيد من الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لدول الخليج العربي انظر التالي:
فيصل السالم واحمدظاهر، العمالة الوافدة الى دول الخليج العربي الكويت: ذات السلاسل ، بلا تاريخ واحمد ظاهر ، البيروقراطية والاغتراب الاجتماعي في دول الخليج العربي (الكويت: ذات السلاسل ، ١٩٨٤) واحمد ظاهر ، المرأة في دول الخليج العربي (الكويت: ذات السلاسل ، ١٩٨٤.

خاتمة

من خلال العرض السابق يلاحظ ان المدينة الخليجية مدينة بلا هـوية لأن من يعيش بها لا هوية له. والمدينة الخليجية اشبه بمدينة المستعمر التي وصفها فرانز فانون وان اختلف السبب. فاذا كان الاستعمار قد جعل من مدينة فانون ان يكون الناس بها كتل بشرية لاقيمة لهم ولا يفقهون معنى الحياة فان المدينة الخليجية، وبفضل النفط والثراء الناتج عنه، مدينة جعلت من افرادها كتلا بشريـة لا هويـة لهم. فالمـدينة الخليجية تفكر اسلاميا وتتصرف غربيا وتطالب بالاشتراكية. وتتجلى الهوة بين التفكير النظري والتطبيق العملي فالفكر في واد والتطبيق العملي في واد اخر الامر الذي يؤدي الى مزيد من التيه وفقدان الهوية. ان عدم الانتماء وفقدان الهوية لاتنحصر في المدينة الخليجية فحسب بل تشمل المدينة العربية بكاملها وهي اهم الازمات التي لا تؤدي الا الى عدم اليقين وعدم الثقة. وعليه فقد لايغالي الكاتب ان قال ان المدينة الخليجية غير واثقة في اي طريق تسير تماما كشوارعها التي تحمل اكثر من اسم وبيوتها التي تحمل اكثر من رقم ان وجدت اسماء للشوارع وارقام للبيوت. وتتجلى ازمة الهوية في المدينة العربية عند النظر في متاجرها ومطاعمها واستراحاتها التي تعج بما هو غربي وتستمع لاحاديث صحفها واذاعاتها وكأنها في حالة حرب مع الغرب.

والمدينة الخليجية مدينة مغرمة بالتكنولوجيا الغربية وكرهها للعلم من اجل العلم. والعلم فيها نوع من الترف الذي يتباهى به ويتفاخر فيه عندما يزورها الزائرون. وعلى الرغم من عدد المدارس والمدرسين والمعاهد والجامعات في المدينة الخليجية الا ان العلم نفسه قد افرغ من محتواه. فاذا كان هدف العلم هو البحث عن العلاقات بين الظواهر الطبيعية من اجل الوصول الى نظريات فان هذا الامر غائب تماما الامر الذي يدفع المدينة الخليجية لأستيراد التكنـولوجيـا وليس العلم، على الـرغم من النمط الاجتماعي المشوه الذي نتج عن التكنولوجيا، فضلا عن الهوة الكبيرة بـين الفكر والواقع نتيجة لتعامل الفكر التقليدي مع الالة الحديثة. والتعليم التقليدي مغلف بغلاف التحديث وتفكير المدينة الخليجية عربي مسلم ومناهجها غربية رأسمالية، وما يقرأه الطالب في كتبها الدينية المنشورة يجد خلافا له في التلفاز مما يزيد من معاناة الفرد على المدى الطويل. ولم تستطع المدينة الخليجية خلق المواطن المنتمي للدولة. وكيف يكون لها ذلك اذا نظرت نظرة جدية للفرق بين الاصيل وغير الأصيل، للبـدوي والحضري، للتاجر وغير التاجر وتأليب جماعة ضد اخرى. والواقع فقد أسهم وجود الايـدي العاملة الـوافدة الى تقليص هـذه القضية لان وضـع الوافـد الاجتماعي والاقتصادي اقل بكثير من وضع المواطن في الطبقة الدنيا. وحيث ان اعداد الايدي العاملة كثيرة فان المواطن لايقيم المقارنة بينه وبين ذوي الطبقات الموسرة وانما ينظر الى